تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة الأنبياء وسورة الحج

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

12 صفر 1448 الموافق 26 يوليو 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . ..**الصفحة**

سور الأنبياء 4

سورة الحج 31

المراجع 67

سورة الأنبياء

تسمية السورة

(سورة الأنبياء) ليس لها إلا اسم توقيفي واحد مشهور ومعتمد في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وقد يطلق عليها بعض العلماء أو المفسرين سورة (اقترب) نسبة للآية الأولى منها: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾:

وهي سورة مكية باتفاق، وقد اختلفت مدارس العد في عد آياتها، فهي 112 بالعد المكي، و111 بالعد المدني، وسبب الخلاف :يعود إلى عدّ آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾. فقد عدّها الكوفي آية مستقلة ولم يعدّها الباقون.

ما ورد في بعض آياتها:

عن بن عباس رضي الله عنه: لمَّا نزلَتْ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى أنا أخصِمُ لكم محمدًا فقال يا محمدُ أليسَ فيما أُنزِلَ عليكَ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ قال نعمْ قال فهذِهِ النصارَى تعبُدُ عيسى وهذِهِ اليهودُ تعبدُ عُزَيرًا وهذِهِ بنو تميمٍ تعبدُ الملائكةَ فهؤلاءِ في النارِ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(10) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

1 - أخرجه الطبراني (12/ 153)، (12739) بلفظه، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (985)، والحاكم (3449) كلاهما باختلاف يسير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج7/ص71) فيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة.

لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ(24) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(29))

هذا الدرس الأول هو ديباجة سورة الأنبياء تفتتح بمطلع مباغت يُلقي بالهيبة والوجل في القلوب، إذ يربط بين الحركة الزمنية السريعة ("اقترب") والموقف الشعوري الغافل للشر، مقيمًا محاكمة بيانية وأسلوبية للطبيعة البشرية حين تتنكر للوحي والدلائل.

المحور الأول: صدمة الغفلة ومواقف المكذبين من الوحي: *﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

افتتاح بـ الفعل الماضي (اقْتَرَبَ) لإفادة التحقق والوقوع الكائن لا محالة، ونكّر "حسابهم" إضافةً للإضافة المعرفة للتهويل. وتقديم الجار والمجرور (لِلنَّاسِ) لبيان أن المتضرر الأول من هذا الاقتراب هو الإنسان. (حِسَابُهُمْ) أي: وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم. والجملة الحالية ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ جاءت باقتران "في" الظرفية الموحية باستغراقهم الداخلي في الغفلة، متبوعة بـ "معرضون" (اسم فاعل) لإفادة الثبات والاستمرار في الإعراض الخارجي.

*﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ دخول (مِن) الاستغراقية على النكرة (ذِكْرٍ) لشمول كل تنزيل. وتوصيف الذكر بـ (مُّحْدَثٍ) يفيد تجدد النزول وتنزيل السور طبقًا للحوادث، كما يوضح ابن تيمية وابن عاشور- رحمهما الله -، ويدخل في ذلك تذكير النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالقرآن أو بغيره من الوحي لأنه صلى الله عليه وسلم لا يعظهم إلا بما يوحي الله إليه. كما أنّ الاستثناء بـ (إِلَّا) يبعد أي نوع من الاعتبار والاتعاظ؛ والجملة الحالية ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ترسم صورة هزلية لتعاملهم مع الجد المطلق.

التناجي الخفي واضطراب الشبهات: *﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ... ﴾: تقديم الحال (لَاهِيَةً) على القلوب لتجسيد الذهول القلبي قبل الحركة الجسدية.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا... ﴾: إظهار الظاهر في موضع الضمير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدلاً من "وأسروا النجوى وقالوا" لتسجيل صفة الظلم عليهم. الاستفهام الانكاري ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعكس قياسهم الشمولي الفاسد بين النبوة والبشرية المادية، أنكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة.

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ أي: تحضرون السحر وتقبلونه، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: تعلمون أنه سحر.

*﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... ﴾: كشف التناجي السري بإحاطة العلم الإلهي بـ "القول" مطلقًا، وتقديم السماء لشرفها وتحديًا لمعتقدهم. (قال) قراءة حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي وخلف العاشر بصيغة الماضي، وقرأ الباقول (قل) بصيغة الأمر.

*﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ... ﴾: الإضراب المتكرر بـ (بَلْ) يعكس اضطراب التفكير المشرك وتخبطهم بين التفسيرات النفسية (أحلام)، والاتهامات الأخلاقية (افتراء)، والجمالية (شعر). وقيل: اقتسموا القول فبعضهم قال: ساحر، وبعضهم قال: أضغاث أحلام، كما قيل لرؤيا الملك في سورة يوسف، وبعضهم قال: افتراه أي: اختلقه، وبعضهم قال: شاعر.

وهذا يتكرر كثيراً في القرآن المكي: إنكار العرب المشركين للوحي والرسالة، وأنكارهم للبعث، ثم طلبهم الملح من الرسول –صلى الله عليه وسلم – أن يأتيهم بآية، وتعليق إيمانهم وإتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم على نزول تلك الآية، وتعليق إيمانهم وإتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم على نزول تلك الآية، فقد كان الإلحاح في طلب الآية، واهتمام الرسول – صلى الله عليه وسلم– بهذا الطلب، وتمنيه لو أنّ الله استجاب لهم فأنزل لهم الآية التي يريدونها.. كل هذا كان في العهد المكي كما تشير إليه هذه الآيات المكية [1].

عن عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما قال: أنَّها قالتْ لرسولِ اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ –: هل أتَى عليكَ يومٌ كانَ أشدَّ مِن يومِ أحدٍ ؟ فقالَ : لقد لقيتُ مِن قومِكِ ، وَكانَ أشدَّ ما لقيتُ منهُم يومَ العقبةِ إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ

(1) – محمد قطب: دراسات قرآنية (ص148) .

عبدِ كلالٍ ، فلَم يجبْني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأَنا مَهْمومٌ علَى وجهي، فلَم أستفِقْ إلَّا وأَنا بقرنِ الثَّعالبِ، فرفعتُ رأسي ، فإذا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليهِ السَّلامُ، فَناداني فقالَ: يا محمَّدُ، إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ، قد سمِعَ قولَ قومِكَ لَكَ، وما ردُّوا عليكَ، وقد بعثَ اللَّهُ ملَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهِم قالَ: فَناداني ملَكُ الجبالِ: فسلَّمَ عليَّ، ثمَّ قالَ: يا محمَّدُ: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد سمِعَ قولَ قومِكَ لَكَ، وأَنا ملَكُ الجبالِ، وقد بعثَني ربُّكَ إليكَ لتأمرَني أمرَكَ، وبما شئتَ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهِمُ الأخشبَينِ فعلتُ، فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللَّهَ، لا يشرِكُ بِهِ شيئًا[1].

سنّة الرسالة وخصائص الكتاب: *﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا... ﴾: حجة تاريخية؛ طلب الآيات الحسيّة اقتراح متكرر انتهى بإهلاك المكذبين سابقًا، ففي هذا تعريض وتحذير شديد للمشركين

*﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كنتم لا تعلمون﴾: حصر النبوة في البشرية المؤيدة بالوحي، وقصر العلم على "أهل الذكر" (أهل الكتاب والعلم بالشرائع) كمرجعية تاريخية. هذا جواب قولهم: (هل هذا إلا بشر مثلكم)، فالله لم يرسل الملائكة إلى الأولين، بل أرسل رجالاً مثلهم وإنما يوحى إليهم.

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كنتم لا تعلمون﴾، يريد علماء أهل الكتاب، فإنهم لا ينكرون أنّ الرسل كانوا بشراً، وإن أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأمر بمساءلتهم؛ لأنّ المشركين كانوا أقرب إلى تصديق من لم يؤمن بالنبي مثلهم منهم إلى تصديق من آمن منهم.

وما زلنا نسمع اعترافات من بعض القساوسة من أسلم منهم ومن لم يسلم أن في كتبهم الكثير من تصديق القرآن، ففي بعض النسح أن المسيح لم يصلب بل رفع، واسم من ألقي عليه الشبه، وأنهم نفى أن يكون إلها، بل في بعض النسخ أنه منذ خلق آدم مكتوب في السماء مما قرأه آدم عليه السلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله). لكن بعض تلك النسخ ألغي، وبعضها أول، وبعضها حرف.

*﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وما كانوا خالدين﴾: نفي أسطورة "النبي الفوق-بشري"؛ فالأنبياء يخضعون للسنن البيولوجية والزمنية.

([1]) – أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد(ج1/ص111) والبخاري (3231) ومسلم (1795) باختلاف يسير.

وقال سبحانه عن عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:75].

*﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم، ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أنجى الله أنبياءه والمؤمنين الذين صدقوهم، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي الذين كذبو المرسلين، وفي هذا تعريض آخر وتهديد للمشركين.

*﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: (ذِكْرُكُمْ) كلمة جامعة تعني شرفكم، وتذكيركم، وأخباركم (كما بين ابن القيم والبغوي)، والاستفهام الحضّي للتحريك العقلي.

المحور الثاني: سنّة القصم ومشاهد صرع وإهلاك الظالمين: إشراقة بلاغية والأصل اللغوي:

*﴿وَكَمْ قَصَمْنَا قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ لفظة (قَصَمْنَا) بدل "أهلكنا"؛ القصم كسر الشيء الصلب وإبانته، وفيه إيحاء بالشدة والجبروت. وأنّ إهلاك المجتمعات العاتية وإنشاء قوم آخرين يخلفونهم سنة من سنن الله جل وتعالى.

*﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ تصوير الحركة الفجائية (يَرْكُضُونَ)، ثم إجابتهم بالتهكم والتوبيخ *﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾. تحول الاستكبار إلى ذعر وفرار ناكص، يعقبه الاعتراف المبتور بالظلم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

*﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ تشبيه مضاعف – أو ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية وتصريحية: الحصيد كالزرع المحصود، والخامد كالنار المنطفئة. استئصال كامل وشامل للوجود والحركة الحياة.

*﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾، قال ابن عاشور – رحمه الله –: كثر في القرآن الاستدلال بإتقان خلق السماوات والأرض وما بينهما على أنّ لله حكمة في خلق المخلوقات وخلق نظمها وسننها وفطرها، بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقة بعضها ببعض متناسبة مجارية لما تقتضيه الحكمة، ولذلك قال في سورة الحجر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ﴾ قلت: واستدل بذلك على إتيان الساعة وقيام القيامة لا محالة ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:85].

ومن ذلك أن تعقب الآيات المبينة لما في الخلق من الحق بالآيات التي تذكر الجزاء، والحساب، والعكس، مثل قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115].

قال – رحمه الله – فكذلك هذه الآية عقب بها ذكر القوم المهلكين، والمقصود من ذلك إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات وإعطاء كل مخلوق ما به قوامه، فإذا كانت تلك سنة الله في خلق العوالم ظرفها ومظروفها استدل بذلك عن أو تلك السنة لا تتخلف في ترتب المسببات على أسبابها فيما يأتيه من جنس المكلفين من الأعمال، فإذا علمهم الله على لسان شرائعه بأنه ادخر الجزاء الكامل على الأعمال إلى يوم آخر آمنوا به، وإذا علّمهم أنهم لا يفوتون ذلك بالموت بل إنّ لهم حياة آخرة، وأنّ الله باعثهم بعد الموت أيقنوا بها، وإذا علّمهم أنّه ربما عجل لهم بعض الجزاء في الحياة الدنيا أيقنوا به [1].

*﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، قال البغوي: اختلفوا في اللهو، قال ابن عباس في رواية عطاء: اللهو المرأة، وهو قول الحسن وقتادة، وقال في رواية الكلبي: اللهو الولد، ﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، لا من عندكم من أهل الأرض ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج: (إن) للنفي أي ما كنا فاعلين [2]..

قلت: وفيها شيء من معنى سورة الصمد التي تجمع الكمال الذاتي لله جل وتعالى، وغناه المطلق سبحانه، وافتقار جميع مخلوقاته إليه سبحانه.

*﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ في هذه الآية تأكيد لما ذهب إليه ابن عاشورة من ربط الحق، وحتمية قيام الساعة للجزاء بخلق السماوات والأرض وما بينهما، كما أنّ فيها إلجام للظانين غير ذلك.

الفعل المضارع (نَقْذِفُ) والتعبير الحركي ﴿بِالْحَقِّ﴾ **قيل**: بالإيمان، وقيل: أنه لا ولد له، ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ قيل: على الكفر، وقيل: قولهم: اتخذ الله ولدا. (فَيَدْمَغُهُ) أي فيهلكه، ويشرق به. ففيه نفي العبثية عن الخلق، وإظهار غلبة الحق على الباطل بقوة قاهرة تجعله زائلًا ("زهوقا").

المحور الثالث: دلائل التوحيد وعبودية الكائنات والرد على الشرك، شرف العبودية واستغراق التسبيح، والاسترسال في بيان سعة غناه سبحانه:

*﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

([1]) – انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير(ج6/ص250-251).
([2]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص763).

وصف الملائكة بالنفي المزدوج: نفي الكبر النفسي ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يأنفون عن عبادته، ونفي التعب البدني ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يتعبون.

الصياغة الأسلوبية في ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾: استمرار وتسلسل لا ينقطع، ينفي عنهم أي طابع ألوهية ويصنفهم في رتبة العباد الخالصين.

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أطَّت بهم السماءُ، وحقَّ لها أن تئطَ، ما فيها موضعَ أربع أصابع إلا وملك قائمٌ، أو راكعٌ ، أو ساجدٌ.

وفي وواية: إنِّي أرَى ما لا ترَونَ وأسمعُ ما لا تسمَعون ، أطَّتِ السماءُ وحق لها أن تَئِطَّ؛ ما فيها موضِعُ أربعِ أصابِعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ لله ساجدًا، واللهِ لو تَعلمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلًا ولبَكَيتُمْ كثيرًا، وما تَلَذَّذْتُمْ بالنساءِ على الفُرُشِ، ولخَرَجْتُمْ إلى الصَّعُدَاتِ تجْأَرونَ إلى اللهِ . لوَدِدْتُ أنِّي كنتُ شجرةً تُعْضَدُ [1].

*﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾، بطلان التعدد والرد بالحجة البرهانية: دليل التمانع *﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾: برهان منطقي وفطري صارم؛ لزوماً لو تعددت الإرادات المدبرة للكون لحدث التصادم واختلت القوانين الفيزيائية والتكوينية، يستدل بهذه الآية وبدليل التمانع ابن تيمية وغير رحمهم الله - على توحيد الربوبية والمستلزم لتوحيد الإلهية.

تنزيه الرب العرش ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: تعقيب بليغ بنفي نقائص المشركين.

قاعدة الحاكمية الإلهية ﴿لَا يُسَأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾: بيان كمال الحكمة والقدرة والعدل الإلهي مطلقاً؛ فالعباد محكومون بالمساءلة، وهو سبحانه الحاكم لا يُسأل لعظمته وحكمته وعدله، وقد ألزم نفسه سبحانه بالحكمة والعدل والرحمة وغير ذلك من صفاته الجليلة سبحانه.

المطالبة بالبرهان *﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: إفلاس الشرك من الدليل النقلي والعقلي؛ إذ إن الكتب السماوية السابقة واللاحقة ("ذكر من معي وذكر من قبلي") متفقة على التوحيد.

ولا يزال العلماء والدعاة يجادلون النصارى ويثبتون لهم من كتبهم أن عيسى عليه السلام لم يقل ولا مرة واحدة إنه إله من دون الله، بل تكرر أن أشار -عليه السلام - إلى نفسه بأنه رسول وعبدٌ لله، وأنّ الله هو الإله المتفرد بالألوهية والربوبية سبحانه.

---

(1) – أخرجه الترمذي (2313) وابن ماجه (4190)، وأحمد (21516) باختلاف يسير، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني: صحيح بشواهده.

ثم يعيد ويؤكد على إبطال ادعاء الولد والشفاعة غير المأذونة، ويؤكد وحدة الرسالات *﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾: تأكيد عمود الدعوة ومركزيتها عبر التاريخ البشري.

ثمّ يفنّد بنوة الملائكة *﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾: شرفهم بالعبودية والإكرام لا بخلطة النسب والولادة.

قال المفسرون: نزلت في خزاعة، حيث قالوا: (الملائكة بنات الله)، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عمّا قالوا، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: هو، يعني: الملائكة، عباد مكرمون.

الانضباط المطلق *﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: أرقى أدب في العبودية في أبهى صورها؛ تقديم أمر الله، وحصر الشفاعة بإذنه ورضاه، مع المشاعر الإيمانية العميقة ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

*﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لَا يَتَقَدَّمُونَهُ بِالْقَوْلِ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يُخَالِفُونَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا. *﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيْ مَا عَمِلُوا وَمَا هُمْ عَامِلُونَ. وَقِيلَ: مَا كَانَ قَبْلَ خَلْقِهِمْ وَمَا يَكُونُ بَعْدَ خَلْقِهِمْ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لِمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ لِمَنْ رَضِيَ عَنْهُ، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ خَائِفُونَ لَا يَأْمَنُونَ مَكْرَهُ سبحانه [1].

قال ابن تيمية – رحمه الله -: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبق إلا الشفاعة. فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون أي: ويتعلقون بها -، هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده " لا يبدأ بالشفاعة أولا . (ثم يقال له" : ارفع رأسك وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع"[2].

لاحظ المحسن البديعي أو ما يُطلق عليه في علم البديع اسم "تشابه الأطراف" (أو جناس تشابه الأطراف عند وقوعه بين لفظين متجانسين)، كما يندرج تحت باب

---

(1) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص765).

(2) – انظر عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (ت ١٢٨٥هـ): فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص209)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، الطبعة: لسابعة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م، وحديث شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري (7510) واللفظ له، ومسلم (193)، والآجري في ((الشريعة)) (809)، وابن منده في ((الإيمان)) (861) بنحوه. أخرجه البخاري (7510) واللفظ له، والآجري في ((الشريعة)) (809)، وابن منده في ((الإيمان)) (861) بنحوه.

"التصدير" أو "رد العجز على الصدر". وقد نصّ صفي الدين الحلي وغيره من علماء البلاغة على هذا الموطن تحديداً؛ حيث تقع الكلمة في آخر الآية الأولى (خاتمتها) وتتشابه أو تتجانس مع الكلمة التي تقع في أول الآية التي تليها (بدايتها).:الآية الأولى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾. والآية الثانية: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. بين كلمتي (يعملون) و(يعلم) جناسٌ ناقص (مقلوب) بسبب إعادة ترتيب الحروف (العين، الميم، اللام). ولأن الكلمة الأولى جاءت في نهاية الآية والكلمة الثانية جاءت في بداية الآية التالية مباشرة، فإن الأطراف تشابهت والتقت عند الفاصلة، فسمي "تشابه الأطراف" [1].

ثم الختم بالحسم العدلي ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾: شرط فرضي يقطع دابر أي ادعاء بالألوهية لأي مخلوق مهما بلغت منزلته.

وقَالَ قَتَادَةُ: عَنَى بِهِ إِبْلِيسَ حِينَ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَأَمَرَ بِطَاعَةِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَقُلْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الْوَاضِعِينَ الْإِلَهِيَّةَ وَالْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا» [2].

*(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(35) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (40) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ(44) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (45) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا

([1]) – انظر صفي الدين الحلي: شرح الكافية البديعية (ص60، 67).
([2]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص765).

كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ(47))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة الأنبياء وحدة موضوعية متماسكة، توازن بين دلائل التوحيد الكونية، وسنن الوجود الإنساني من فناء وابتلاء، والرد الصارم على استهزاء الكفار واستعجالهم للعذاب، وصولاً إلى مشهد الحساب الميزاني الدقيق.

الدلائل الكونية الكبرى وعظمة الصنعة: *﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

السياق والربط: بعد أن قرر في الآيات السابقة توحيد الألوهية ونفي الشركاء، عطف هنا بالاستفهام التوبيخي الإنكاري لإلزامهم بما يشاهدونه في أصل نشأة الكون وحياة الكائنات.

البيان واللسان: التعبير بـ ﴿رَتْقًا﴾ (وهو الالتئام والانسداد) و﴿فَتَقْنَاهُمَا﴾ (الشق والفصل) يحمل إيجازاً إعجازياً؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ: كَانَتَا شَيْئًا وَاحِدًا مُلْتَزِقَتَيْنِ {فَفَتَقْنَاهُمَا} فَصَلْنَا بَيْنَهُمَا بِالْهَوَاءِ، وقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: كَانَتِ السَّمَوَاتُ مُرْتَقَةً طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا فَجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَكَذَلِكَ الْأَرْضُ كَانَتَا مُرْتَقَةً طَبَقَةً وَاحِدَةً فَجَعَلَهَا سَبْعَ أَرَضِينَ.

قَالَ عِكْرِمَةُ وَعَطِيَّةُ: كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقًا لَا تُمْطِرُ وَالْأَرْضُ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ[1].

يقرأ سيد قطب – رحمه الله - تقرير حقيقة الحياة في قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؛ لمسة وجدانية عميقة تهز الفطرة، فالماء أصل الحياة، وخالق الحياة وواهبها أولى بأن يُفرد بالعبودية، فجاء التعقيب: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

*﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

البيان والأسلوب: إسناد الفعل للضمير المعظم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ يبرز التدبير الرباني للأرض. ﴿رَوَاسِيَ﴾ صفة لموصوف محذوف (جبالاً رواسي، أي: ثوابت، مثبتال للقشرة الأرضية.

الدلالة اللسانية: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي كراهة أن تضطرب وتميل. وجمع ﴿فِجَاجًا﴾ (المسالك الواسعة بين الجبال) مع ﴿سُبُلًا﴾ جمع بين سعة الطريق ووضوح غايته.

([1]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص765).

البعد الإشاري: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هداية مزدوجة: حسية في مسالك الأرض، ومعنوية بالاستدلال على الصانع الحكيم.

*﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، إشراقة بلاغية: هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة تمثيلية؛ تصوير السماء المرفوعة بـ ﴿سَقْفًا﴾ يفيض بالأمن والحماية.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ من السقوط، ومن استراق الشياطين للسمع، وحفظاً للأرض وغلافها.

المفارقة الأسلوبية: مقابلة عجيبة بين سقف محفوظ باهر الآيات، وبين بلادة الحس البشري: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ إعراض غريب رغم أن الآيات تظللهم ليل نهار.

*﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، اللطائف اللسانية: التعبير بـ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بضمير جمع العقلاء بدلاً من (تسبح)؛ لإسناد فعل السباحة والحركة الدائرية المنتظمة الدقيقة للأجرام كأنها كائنات عاقلة مطيعة لأمر بارئها.

التصوير الحركي: ﴿فَلَكٍ﴾ المدار المستدير، والسباحة تعكس الانسيابية المطلقة والخفة والتوازن الكوني البديع.

حقيقة الفناء والابتلاء وسنة الموت: *﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

السياق: رداً على ترصد المشركين لموت النبي ﷺ وتشوفهم له وقولهم "نتربص به ريب المنون".

الأسلوب: استفهام إنكاري تهكمي مبني على حقيقة عقلية قطعية: إن متَّ يا محمد -وهي سنة الخلق- فلن يخلدوا بعدك، ففيمَ الشماتة والاستبشار؟!

*﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، البيان: هنا ما يطلق عليه البلاغيون استعارة مكنية حيث جعل للموت طعماً يُذاق، وهو تعبير متعارف عليه في لغة العرب، وتعميم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يقطع كل أمل في البقاء.

العمق النفسي والتربوي: الابتلاء بالخير، أي بـ(النعمة، العافية، السعة) أشد خطراً وأدق من الابتلاء بالشر، بـ (المصائب والشدائد)؛ لأن الشر يستنهض الصبر واللجوء إلى الله، بينما الخير قد يورث الغفلة والطغيان.

وكلا الابتلاءين سوف نحاسب عليه – نسأل الله العافية - ولذا كانت الخاتمة المصيرية: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور لقصر المرجع والمصير على الله وحده للحساب.

سيكولوجية الاستهزاء وطبيعة العجلة البشرية: *﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، التصوير والسياق: تصوير احتقارهم للمقام النبوي بإشارة التحقير وَهَٰذَا﴾، وكلمة ﴿يَذْكُرُ﴾ كناية عن عيب أصنامهم وتسفيهها، أي: يذكرها بالسوء ويعيبها ويسفه أحلامهم في عبادتها.

إشراقة بلاغية: يغضبون لذكر أصنامهم الحجرية بنقص، بينما يقابلون ذكر ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ -مفيض النعم وأصل الوجود- بالكفر والجحود، وتكرار الضمير ﴿هُم﴾ لتأكيد اختصاصهم بهذا الجهل الفاضح.

*﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، المبالغة البيانية: عبّر عن فرط استعجال الإنسان كأنه خُلق من العجلة ذاتها (كما يقال: فلان خلق من كرم)، وهي طبيعة فطرية إن لم تهذبها الشريعة قادت للهلاك.

الوعيد والالتفات: انتقال من الغيبة إلى الخطاب ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ لتشديد الإنذار؛ أي سترون عذابي واقعاً لا محالة حين يأتي وقته المقدر.

*﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، الأسلوب: استفهام تعجيز واستبعاد وتكذيب، والجمع في ﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ موجه للنبي ﷺ والمؤمنين تشكيكاً في أصل البعث والعذاب.

مباغتة العذاب وسقوط الشركاء: *﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، إشراقة بلاغة الإيجاز: حذف جواب ﴿لَوْ﴾ لتهويل الأمر وتعظيم الفظاعة (أي: لو يعلمون ذلك لما استعجلوا ولآمنوا).

التصوير الحسي المروّع: إحاطة النار بهم من الوجوه -وهي أشرف ما في الإنسان- ومن الظهور، ونفي أي ناصر يدفع عنهم.

*﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}، التتابع الحركي: الإتيان ﴿بَغْتَةً﴾ يولد الذهول ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ (يتحيرون وتنقطع حيلهم)، ثم العجز عن الدفع ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، ثم انعدام المهلة والتأخير ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

*﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

التسلية النبوية: تثبيت لقلب النبي ﷺ ببيان سنة تاريخية ماضية؛ ﴿فَحَاقَ﴾ (أحاط ونزل) العذاب المستهزأ به بالمستهزئين أنفسهم.

*﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾

اللسان والبيان: ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ أي يحفظكم ويحرسكم في تقلبكم بالليل والنهار إذا نزل بكم بأس الرحمن؟

اللطيفة التدبرية: اقتران اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ بـ ﴿مِنَ} للدلالة على أنه إن غضب الرحمن وحل عذابه، فمن ذا الذي يرحم أو يجير سواه؟ لكنهم في غفلة وإعراض.

*﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

الحِجاج العقلي: تسفيه الشرك ببرهان قطعي؛ فهذه الآلهة عاجزة عن حماية نفسها، فكيف تحمي عابديها؟ و﴿لَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي لا ينالهم منا جوار ولا حفظ.

*﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

التحليل النفسي والسنني: يرى ابن تيمية وابن عاشور – رحمهما الله - أنّ سبب ضلالهم هو الاغترار بالإمهال والتمتيع وطول الأمد، فظنوا النعمة خلوداً ورضى.

البيان: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ إشارة إلى فتوحات الإسلام وتقلص دار الشرك وزوال الأمم السابقة، وختمها باستفهام التحدي: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ لإسقاط وهم القوة والمنعة.

وظيفة الرسالة والميزان القسط الأخير: *﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ} (45)

القصر والحصر: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ حصر مهمة النبي ﷺ في البلاغ المستند للوحي فقط دون تحكم في مشيئة إنزال العذاب.

التشبيه البليغ: تشبيه المعرضين بـ ﴿الصُّمُّ﴾ الذين عُطلت حواسهم، فلا ينفعهم نداء ولا تحذير.

*﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، غاية التقليل البلاغي: اجتمعت في الآية أدوات التقليل: {لَئِن} الشرطية الدالة على الفرض والشك.

{مَّسَّتْهُمْ} والمس أخف اللمس، {نَفْحَةٌ} بناء المرة (نسمة خفيفة جداً)، {مِّنْ} التبعيضية.

﴿عَذَابِ رَبِّكَ﴾ إضافة اسم الرب المنبئ بالرحمة لا اسم الجبار، ليتناسب مع ما قبله، حتى نفحة قليلة من عذاب ربك الرحمن، حتى هذا القدر المتناهي في الصغر

من العذاب، سوف ينهار معه استكبارهم ويعترفون فوراً: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، فيه إشارة ليوم القيامة ولا ينفع يومئذ الندم.

*﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

إنه العدل المطلق: ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ وصف الموازين بالعدل للمبالغة (كأنها العدل نفسه).

الدقة المتناهية: ضرب المثل بـ ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ وهي غاية الصغر والوزن الخفي لإثبات شمول الإحصاء الإلهي للنيات والأعمال الدقيقة.

الختام المهيب: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إشعار بجلال الإحاطة وكمال العلم والحساب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

*(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (50) ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ(72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82) ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (91) إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(92))

هذا المقطع العظيم من سورة الأنبياء خصص لتوحيد موكب النبوة الخالد؛ حيث تتآلف الأساليب البيانية والدلالات السياقية لترسيخ وحدة الرسالة والربوبية وصولاً إلى القاعدة الكلية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

المشهد الأول: وحدة الوحي والهداية (موسى وهارون والقرآن): *﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾

اللسان والنظم: عطف الأوصاف الثلاثة (الفرقان، ضياءً، ذكراً) للتوراة، أو جعل الفرقان هو التوراة والضياء هو النور الداخلي الكاشف للحيرة. التنكير في «ضِيَاءً» و«ذِكْرًا» للتعظيم.

البيان والسياق: كما يُبرز ابن عاشور – حمه الله - أنّ في تقُديّم «الفرقان» لأنه يفصل بين الحق والباطل، ثم «الضياء» لإنارة مسالك السلوك، ثم «الذكر» لتثبيت القلوب، وخُصّت الهداية بالمتقين لأنهم المنتفعون الحقيقيون.

*﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾، الأسلوبية والدلالة: اقتران «الخشية بالغيب» بالإشفاق من «الساعة». الخشية تكون للذات العلية حيث لا يراهم إلا الله، والإشفاق روعٌ دائم من هول يوم الحساب، وهو لبّ التقوى وأساس الاستعداد.

*﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾، إشاق بلاغية: التفات من الغيبة إلى الخطاب المباشر للإنكار والتقريع عبر الهمزة الاستفهامية ﴿أَفَأَنتُمْ﴾، والإشارة بـ ﴿هَٰذَا﴾ للقريب الحاضر المحسوس المشهود وهو القرآن، ووصفه بـ «مُبَارَكٌ» ليفيض بالخير والنماء على متبعيه.

المشهد الثاني: ملحمة إبراهيم ومحاكمة العقل الوثني: *﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾

إضافة «رُشْدَهُ» إلى ضميره دلالة على الرشد التام اللائق بمقامه، قال القرطبي: أي صلاحة، و«مِن قَبْلُ» أي: قبل موسى وهارون، وقال المفسرون: رشده أي هداه، و«مِن قَبْلُ» أي من قبل البلوغ. وقوله ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ تعليل لاصطفائه لعلم الله بأهليته واستعداده الفطري، أنّه أهل للهداية والنبوة [1].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، الأسلوب: إيراد اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ للتحقير، ولفظ ﴿التَّمَاثِيلُ﴾ تجريداً لها من أي قداسة؛ فهي مجرد صور منحوتة لا حياة فيها، ونسبتهم إلى «العكوف» إشارة إلى حبس النفس على العدم والجمود.

*﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، اللسان والتدبر: عجز الفكر الوثني وانقطاع حجته بالاحتماء بـ «التقليد الأعمى»؛ إذ لم يجدوا دليلاً سوى إلف العادة وتوارث الضلال.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، إشاقة بلاغية: صراحة الحجة وقوة المواجهة عبر التوكيد بـ (اللام، وقد، والضمير المنفصل «أَنْتُمْ»)، ولم يستثنِ الآباء حتى يسقط المرتكز الوحيد الذي استندوا إليه.

*﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾، السياق: صدمة العقل الجمعي المألوف؛ حيث حسبوا تسفيهه لأصنامهم من قبيل الهزل والدعابة لشدة ما استقر في وجدانهم المريض من تعظيمها.

*﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

النظم: إضراب بـ «بَلْ» لنفي اللعب وإثبات الحق المطلق، والاستدلال بالخلق والابتداء «فَطَرَهُنَّ» على استحقاق العبادة لله وحده، وتأكيد إبراهيم عليه السلام موقفه بصفة الشاهد القاطع.

([1]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص768).

*﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، الأسلوب: القسم بـ «التاء» التي تدل على التعجب والشدة، مقترناً بنون التوكيد الثقيلة؛ إعلاناً للانتقال من مرحلة المحاجة القولية إلى الصدمة العملية لكسر هيبة الصنم.

*﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، البيان: «جُذَاذًا» (فُتاتاً وقطعاً محطمة). واستبقاء «الكبير» كان تدبيراً استدلالياً بديعاً؛ ليضعهم أمام مأزق عقلي حين يرجعون إليه فيجدونه عاجزاً عن الدفاع عن رفاقه، بل هو المتهم، وليشعل في عقولهم معركة تخيلية، فهذه أصنامكم قد تشاكست لو كانت آلهة.

*﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، السياق: مفارقة ساخرة ومريرة؛ آلهة عاجزة تُكسّر وتنتظر من يبحث عن فاعلها وينتصر لها، مع رمي الفاعل بـ «الظلم» لانقلاب الموازين عندهم، واستبعاد وقوع التشاكس بينها، ليقينهم بحالها.

*﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، فليبحثوا عن أي شبهة لأي متهم، والتنكير بـ «فَتًى» بقصد التحقير وصغر السن والتقليل من شأنه، واستعمال صيغة التمريض «يُقَالُ لَهُ» إشعاراً بعدم شهرته بينهم، لكنه كان وحده أمةً في يقينه.

*﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، البيان: إرادة التشهير به والانتقام منه علناً؛ لترهيب غيره، ولم يعلموا أنهم بذلك يجمعون الناس لشهادة محاكمتهم العقلية وسقوط باطلهم.

*﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، الأسلوب: الاستفهام التقريري المصحوب بالدهشة والاستنكار، ومواجهته بالاسم مباشرة للمساءلة.

*﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، إشراقة بلاغية: أسلوب تهكمي استدلالي يُلزم الخصم بما يعتقد. لم يكن كذباً محضاً بل تعليقاً على شرط مستحيل: لِمَ لا يكون الفاعل هو هذا؟ فأسالوهم إن كانوا ينطقون، فإن عجزوا عن النطق ثبت عجزهم عن الفعل.

*﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، سجل لهم القرآن لحظة الاستفاقة واليقظة الفطرية، حيث خاطبوا أنفسهم بضمير الخطاب «إِنَّكُمْ» وكأن الوعي انقسم ليحاكم ذاته المعطلة، لكن من يجرؤ على النقد.

*﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾، التصوير الفني: التعبير بـ «نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ» لتجسيد الانتكاسة العقلية والنفسية، وعودتهم إلى اللجاجة والجهل بعد وميض الحق السريع، مقرين بلا شعور بحجته: «مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ».

*﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، وهكذا وصل إبراهيم عليه السلام إلى نسف علة العبادة؛ فالنفع والضر هما مدار الإلهية، والجماد لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً للضر، فكيف بغيره؟

*﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، الصوت والدلالة: «أُفٍّ» اسم فعل مضارع للتضجر والاستقذار لضلالهم، مع الاستفهام الإنكاري لغياب العقل الرشيد. ولا تزال كلمة (أف) تستعمل في العراق أرض بابل أكثر من غيرها من الدول العربية.

*﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾: عندما تفلس الحجة يبرز منطق البطش والقوة. ومن المفارقات البيانية الساخرة أن الإله صار محتاجاً لنصرة عابده الضعيف: «وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ».

*﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، فنصر الله عبده، خطاب وتعطيل عنصر الإحراق في النار فيسلب منها خاصيتها. وتقييد «بَرْدًا» بـ «وَسَلَامًا» حتى لا تهلكه بزمهريرها، بل تكون برداً ناعماً وسلامة وأماناً.

*﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾، المقابلة: إرادة الكيد البشري قوبلت بالفعل الإلهي الحاسم؛ فكانت النتيجة صيغة التفضيل «الْأَخْسَرِينَ» لبيان شمول الخسران في الدنيا بالخيبة وفي الآخرة بالعذاب.

*﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، السياق الجغرافي والإيماني: الهجرة من أرض الوثنية (بابل/العراق) إلى أرض البركة والرسالات (الشام وفلسطين)، ومصاحبة لوط لابن عمه وشيخه في التوحيد، تلك الهجرة المباركة التي يصبح من المؤمن الوحيد من الرجال نبيّاً، والمؤمنة به من النساء أم الأنبياء.

*﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾، اللسان: «نَافِلَةً» أي زيادة على ما طلب، إذ بشّر بالولد وولد الولد معاً في مقام واحد، وتأكيد الصلاح المطلق لكل فرد في السلسلة المباركة.

*﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾

الإمامة مشروطة بـ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، وفي الآية الأخرى في بني إسرائيل ذكر سبحانه شرطاً آخر ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24]. فذكر الصبر.

فلا إمامة بلا وحي واتباع، وصبر. وتقديم «فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» كمظلة جامعة، وتخصيص الصلاة والزكاة لأهميتهما الروحية والاجتماعية، والختام بـ ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ للإخلاص والتواضع لمقام الربوبية.

المشهد الثالث: نجاة الرسل وتفريج الكروب: *﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾.

الحكم (الحكمة وفصل القضاء أو النبوة) والعلم المتصل بالحق. ووصف أفعال القرية بـ «الْخَبَائِثَ» تأكيداً لشناعة الشذوذ ومخالفة الفطرة، وتتابع الصفات «قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ» لتبرير استحقاق الإهلاك التام.

*﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، إشراقة بلاغية: هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية تجعل الرحمة كالحصن الحصين أو الجنة المحيطة التي يُدخل الله فيها وليه فيحميه من دنس القوم وعذابهم، ولا يزال هذا الأسلوب يستعمل استعمالا واسعاً فيقال للمهتدي للإسلام: دخل في الإسلام.

*﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، : الرجوع بالزمن «مِن قَبْلُ» للإشارة إلى أقدمية نوح في خط النبوة، وتنكير «كَرْبِ عَظِيمِ» لتهويل هول الطوفان وتكذيب قومه الطويل (ألف سنة إلا خمسين عاماً). وسرعة الاستجابة بالفاء ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾.

*﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

تضمين «نَصَرْنَاهُ» معنى (نجيناه وحميناه) بتعديته بـ «مِنْ»، والتأكيد بـ «أَجْمَعِينَ» على قطع دابر الكفر بلا بقية.

المشهد الرابع: مدرسة الفهم وتسخير الكون (داود وسليمان)، *﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾

«نَفَشَتْ» النفش هو الرعي ليلاً بلا راعٍ، وتكرار «إِذْ» لتعليق الذهن بتفاصيل القضية وشهود الله لمجريات الحكم لا يغيب عنه شيء.

*﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾

أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله – أنّ الله جل وتعالى خص سليمان بدقة الفهم في القضية الأصلح، وتدارك النص مكانة داود بـ ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لئلا يُتوهم نقص في نبوته وحكمه. وتسخير الجماد الأصم «الْجِبَالَ» والحيوان الشارد «الطَّيْرَ» ليسبحا مع داود تجسيد لخشوع الكون المتناغم مع عبادة الأنبياء.

*﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾، الامتنان: «لَبُوسٍ» (الدروع المسرودة لحماية الأنفس لا للعدوان)، ونسب التعليم إليه تعالى:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ لتذكير البشر بمصدر النعم والصناعات، والختام باستفهام الحث والطلب: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

*﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾.

إشراقة بلاغية: حذف الفعل للعلم به (وسخرنا لسليمان)، والجمع بين «عَاصِفَةً» في قوتها و«تَجْرِي بِأَمْرِهِ» في طاعتها وسلاستها كرامةً وتسخيراً نبوياً فريداً.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾

قهر العوالم المتمردة واستخدامها في البناء والغوص لاستخراج اللآلئ، مع حفظ الله لهم من أن يفسدوا أو يتمردوا على أمره.

المشهد الخامس: مواقف الضراعة والمناجاة الخالصة: *﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

أدب الدعاء والبيان: لا ينسب الضر إلى الله، ولهذا عبر أيوب عليه السلام بـ «مَسَّنِيَ» بمنتهى التلطف،

عن علي بن أبي طالب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. اللهم! أنت الملك لا إله إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق. لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئها. لا يصرف عني سيئها إلا أنت. لبيك! وسعديك! والخير كله في يديك. والشر ليس إليك. أنا بك وإليك. تباركت وتعاليت. أستغفرك وأتوب إليك [1].

ولم يصرح بني الله أيوب عليه السلام كذلك بطلب الشفاء حياءً، بل اكتفى بذكر حاله «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» واستعطاف صفة الرحمة «وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

وقديماً قال الأول:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني . . حباؤك إن شيمتك الحباء

إذا أثنى عليه المرء يوماً . .. كفاه من تعرضه الثنـــاء

(1) – أخرجه مسلم (771).

والله سبحانه هو الأجل الأكرم، ولذا كانت الاستجابة سريعة بحرف الفاء العاطفة التي تدل على سرعة التعقيب.

*﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

السرعة والفيض: الفاء للتعقيب والسرعة، والتعبير بـ «فَكَشَفْنَا» كأنه أزال غطاءً خفيفاً لبيان هوان المرض على قدرة الله، و«ذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ» ليتأسى به كل مبتلى فيصبر ويرجو.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ نبيَّ اللهِ أيُّوبَ لبث به بلاؤُه ثمانيَ عشرةَ سنةً ، فرفضه القريبُ والبعيدُ ، إلَّا رَجلَيْن من إخوانِه كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدُهما لصاحبِه ذاتَ يومٍ : تعلمُ واللهِ لقد أذنب أيُّوبُ ذنبًا ما أذنبه أحدٌ من العالمين ، فقال له صاحبُه : وما ذاكَ ؟ قال : منذ ثمانيَ عشرةَ سنةً لم يرحَمْه اللهُ فيكشِفَ ما به ، فلمَّا راحا إلى أيُّوبَ لم يصبِرِ الرَّجلُ حتَّى ذكر ذلك له ، فقال أيُّوبُ : لا أدري ما تقولان غيرِ أنَّ اللهَ تعالَى يعلمُ أنِّي كنتُ أمرُّ بالرَّجلَيْن يتنازعان ، فيذكران اللهَ فأرجِعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ عنهما كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حقٍّ ، قال : وكان يخرُجُ إلى حاجتِه فإذا قضَى حاجتَه أمسكته امرأتُه بيدِه حتَّى يبلُغَ ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها وأُوحي إلى أيُّوبَ أن ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ فاستبطأته ، فتلقَّته تنظُرُ وقد أقبل عليها قد أذهب اللهُ ما به من البلاءِ وهو أحسنُ ما كان ، فلمَّا رأته قالت : أيْ بارك اللهُ فيك ، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ هذا المُبتلَى ، واللهِ على ذلك ما رأيتُ أشبهَ منك إذ كان صحيحًا ، فقال : فإنِّي أنا هو : وكان له أندَران أي (بيدران) : أندَرُ للقمح وأندَرُ للشَّعيرِ ، فبعث اللهُ سحابتَيْن ، فلمَّا كانت إحداهما على أندرِ القمح أفرغت فيه الذَّهبَ حتَّى فاض ، وأفرغت الأخرَى في أندرِ الشَّعيرِ الورِقَ حتَّى فاض [1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: بينَما أيُّوبُ يَغتَسِلُ عُريانًا خَرَّ عليه رِجلُ جَرادٍ مِن ذَهَبٍ، فجَعَلَ يَحثي في ثَوبِه، فنادى رَبُّه: يا أيُّوبُ، ألَم أكُنْ أغنَيتُك عَمَّا تَرى؟ قال: بَلى، يا رَبِّ، ولَكِنْ لا غِنى بي عن بَرَكَتِك[2].

*﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾، الإيجاز: جمعهم تحت وسام خلق واحد هو «الصَّابِرِينَ» لتنوع صور صبرهم (صبر إسماعيل على الذبح، وإدريس على الدعوة، وذي الكفل على العهد والقضاء).

([1]) – أخرجه البزار (6333)، وابن حبان (2898)، والحاكم (4115) باختلاف يسير

([2]) – أخرجه البخاري (7493)، من أفراد البخاري على مسلم.

*﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، التأكيد: تعليل الإدخال في الرحمة بالصلاح؛ لبيان أن الصلاح هو سبب القرب والنجاة.

*﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

النون (الحوت). ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لن نضيق عليه (من التقدير والتضييق كقوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر:16] وليس من العجز.

إشراقة بلاغية: «فنادى في الظُّلُمَاتِ» بالجمع (ظلمة بطن الحوت، وظلمة قعر البحر، وظلمة الليل). واحتوى الدعاء على أركان الإجابة الثلاثة: التوحيد ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾، والتنزيه ﴿سُبْحَانَكَ﴾، والاعتراف بالذنب ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولا شك أن فيه من حال الانكسار لله ما فيه، فهو دعاء نبي علمه ربه كيف يناجي ربه، وهو في هذا الابتلاء العظيم.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ القاعدة الكلية والاطّراد: لم يجعل النجاة خاصة بيونس، بل مدّ أثرها بـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ لتكون قانوناً مطرداً لكل مؤمن يتوسل بهذا الدعاء عند الشدائد، أو بأركان وأحوال وملابسات هذا الدعاء.

*﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، الأدب البليغ: الاستغاثة بـ «رَبِّ» مكررة طلباً للذرية لحمل أمانة الدعوة لا لمجرد الأنس الدنيوي، والختام بتفويض الأمر لله «وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ»؛ أي إن لم ترزقني ولداً فأنت الباقي الحافظ لدينك.

*﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

البيان والعلة: إصلاح الزوجة بتهيئتها للحمل بعد العقم وكبر السن، ثم ذكر أسباب استجابة هذا البيت المبارك:

المسارعة: المبادرة للخيرات دون تباطؤ، والتوازن الروحي: الجمع بين الرجاء «رَغَبًا» والخوف «رَهَبًا»، والخشوع الدائم: الخضوع والانكسار لعظمة الله.

*﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، إيراد مريم بصيغة الموصول ﴿وَالَّتِي﴾ للتنويه بعفتها وطهارتها العظيمة كصفة لازمة ميزتها. كما تميز ذكرها هنا بقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، إذ لم يذكر أنها دعت أو تضرعت، وإنما لإبراز عفتها وطهارتها وتجردها لعبادة الله سبحانه وطاعته؛ ولأن شأن مريم وعيسى قضية واحدة معجزة لا تنفك: أم بلا زوج، ووليد بلا أب.

المشهد الختامي للدرس: وحدة الأمة والغاية العظمى: *﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

بعد هذا العرض المهيب لقوافل الأنبياء باختلاف أزمانهم وأماكنهم وبلاءاتهم، يلتحم السياق كله في حقيقة واحدة: دين الأنبياء جميعاً واحد، وعقيدتهم واحدة، وأمتهم على مر الدهور واحدة.

نصب «أُمَّةً وَاحِدَةً» على الحال المؤكدة؛ ليقرر أن التفرق شذوذ عن الأصل الفطري.

ثم كان ترتيب النتيجة على المقدمة: مادام الرب واحداً ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾، فالواجب الحتمي هو إفراده بالعبادة ﴿فَاعْبُدُونِ﴾.

*(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (108) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (111) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ(112))

هذه الآيات الكريمة في الدرس الخاتم من سورة الأنبياء، تتسق أشد الاتساق مع مقصود السورة العام، وهو: بيان توحيد الله، وإثبات الرسالة والبعث، وإظهار حقيقة الدنيا والآخرة، والربط بين موكب الأنبياء المتصل.

تتجلى في هذه الآيات رحلة بيانية من تشتت الخلق وتفرقهم، مروراً بمشاهد القيامة الكبرى وطيّ السماء، وصولاً إلى غاية الرسالة ووارثي الأرض.

*﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾، السياق والأسلوب: جاءت الآية بعد أن ذكر الله الدين الواحد والأمة الواحدة ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ فجاء الفعل ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ بدلالته الشديدة على التمزق والتنازع العنيف.

جاء التعبير بـ"تقطعوا" لإفادة الخرق الشديد وتقطيع ما أُمر به أن يوصل، و﴿أَمْرَهُمْ﴾ أي دينهم؛ فصاروا أحزاباً وشيعاً.

الالتفات والهيبة: قوله ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ تعقيب فيه جملة أسْمِيَة تتضمن التهديد واليقين، فالجمع المشتت في الدنيا سيتجمع جبرًا وقدرًا بين يدي الله للحساب.

*﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾، الشرط والشرط المقيد: اشترط الإيمان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ لأن العمل الصالح بلا إيمان هباء.

إشراقة بلاغية: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة لطيفة؛ استُعمل الكفران (وهو ضد الشكر والستر) لنفي ضياع الأجر، أي: لن يُجحد سعيه، ولن يُبخس.

أوضح ابن عاشور – رحمه الله - أنّ نفي "الكفران" أبلغ من إثبات "القبول"، لأنه يدل على أن أدنى سعيه مجزوم بقبوله وحفظه. وقوله ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ إشارة إلى التوثيق والعناية الإلهية بالسعي.

*﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، اللسانيات والتركيب: ﴿وَحَرَامٌ﴾ مصدر بمعنى الممنوع ممتنع حدوثه.

التفسير والسياق: المعنى: ممتنع ومستحيل على أي قرية وجب إهلاكها بسبب كفرها أن ترجع إلى الدنيا للتوبة، أو أن تنجو من المرجع إلى الله للحساب.

يربط البقاعي بين الإهلاك الدنيوي والرجوع الأخروي؛ فمَن أُهلك بسنة الاستئصال فقد قُطع عنه خيار الرجوع للتوبة، واستوجب المصير المحتوم.

*﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، التصوير الأسلوبي: انتقلت الآية من حتمية عدم الرجوع إلى علامات الساعة الكبرى. ﴿فُتِحَتْ﴾ بفتح السد أو الإذن بالخروج.

الحركة والرسم القرآني: بيّن سيد قطب – رحمه الله أنّ كلمة ﴿يَنسِلُونَ﴾ ترسم حركة سريعة كالماء المتدفق أو الماشية المنسلّة بأسراع. و﴿حَدَبٍ﴾ أي كل مرتفع من الأرض؛ مما يدل على الكثرة الكاثرة والانتشار السريع والانديا‌ح الذي لا يُرد.

ومما يدل على كثرتهم ما جاء في حديث أبي سعد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقالُ لآدمَ : أخرِجْ بعثَ النَّارِ، قال: فيقولُ: وما

بعثُ النَّارِ؟ فيقولُ: من كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعينَ، فعند ذلك يشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ الحاملُ حملَها، وترَى النَّاسَ سُكارَى وما هُم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ، قال: قلنا: فأين النَّاجي يا رسولَ اللهِ؟! قال: أبشِروا! فإنَّ واحدًا منكم، وألفًا من يأجوجَ ومأجوجَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجنَّةِ! فكبَّرْنا، وحَمدْنا اللهَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أنْ تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ! فكبَّرْنا وحَمدْنا اللهَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أنْ تكونوا نصفَ أهلِ الجنَّةِ، إنَّما مثلُكم في النَّاسِ كمثلِ الشَّعرةِ البيضاءَ في الثَّورِ الأسودِ، أو كمثلِ الشَّعرةِ السَّوداءَ في الثَّورِ الأبيضِ[1].

*﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾، إشراقة بلاغية وسر المفاجأة: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾؛ "إذا" الفجائية تنقل المشهد فوراً كأن القيامة وقعت في اللحظة!

التعبير النفسي: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ﴾ إبقاء العين مفتوحة من شدة الهول والذهول لا ترمش.

الاعتراف والمتأخر: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ انتقلوا من الاعتذار بالغفلة (نفي العلم) إلى الاعتراف بالظلم (الاستكبار والعناد)، وهو اعتراف جاء في غير وقته.

*﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، البيان الدقيق: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ جاءت بـ "ما" لغير العاقل (الأصنام والأوثان)، لتوبيخ العابدين وتزييف الآلهة.

الصورة المتأججة: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الحصب هو الوقود والحطب الذي تُسجر به النار؛ أُلْقِيَت الآلهة الباطلة مع عابديها لتكون حسرة عليهم.

الحجة البالغة: *﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ﴾، ما دخل عابدوها النار، استدلال منطقي قياسي قاطع، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: العابد والمعبود.

الصوتيات والحواس: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ الـ"زفير" صوت أنين وشدة تنفس المغموم. ونفي السمع إما لشدة العذاب والهول أو انقطاع التواصل والتراحُم.

*﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، سياق النزول واستثناء العبادة: استثنت الآية كل من عُبد من دون الله وهو غير راضٍ (كالمسيح وعزير والملائكة)، كما بينا في المقدمة للسورة، ورسمت مشهد الأمان لأهل الإيمان.

([1]) – أخرجه البخاري (3348)، ومسلم (222) بلفظه.

التصوير الفني والأمان المطلق: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: الحسيس هو الصوت الخفي للحركة أو النار؛ فنُفي عنهم حتى سماع أزيز النار عن بُعد لتسكن قلوبهم، وهو مقابل لنفي السمع من أولئك لشدة العذاب والهول.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: نيل المطالب واللذات بلا انقطاع، وهذا مقابل آخر لما عليه أولئك من شدة العذاب.

*﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾: وهو هول نفخة الصور أو البعث، وهذا مقابل ثالث.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الاستقبال التكريمي بالترحيب والبشرى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وهو مقابل رابع. نسأل الله من فضله، أن يجعلنا مع المؤمنين.

*﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ...﴾، قال ابن عباس ومجاهد: السجل: الصحيفة، للكتب: أي لأجل ما كبت، معناه: كطي الصحيفة على مكتوبها [1].

قانون الإعادة: ﴿كَمَا بدأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ استدلال بالبدء على الإعادة، فالإعادة أهون في منطق البشر، وهما عند الله سواء بسلسلة القدرة المطلقة.

*﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

الربط بين الكتب والسنن الإلهية:

الزبور: الكتب المنزلة (أو زبور داود خصوصاً)، الذكر: اللوح المحفوظ أو التوراة.

بيّن ابن قيم الجوزية ومحمد قطب - رحمنها الله – أنّ وراثة الأرض سنة إلهية؛ فالصلاح المطلق يجمع بين صلاح الإيمان والتقوى وصلاح الأخذ بالأسباب والاستخلاف العمراني.

*﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي في هذا القرآن والمذكور من العبر كفاية لمن أقبل على عبادة ربه.

*﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، قمة الشرف والغاية الكبرى: الآية المركزية في السورة وفي الرسالة المحمدية.

حصر وقصر بليغ: استثناء بعد نفي يفيد أن أصل الرسالة وحقيقتها وغايتها متمثلة في "الرحمة".

([1]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص778).

الشمولية ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾: فالنبي صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، ورحمة للكافر بتأخير العذاب وعدم الاستئصال العام في الدنيا، والإنس والجن والحيوان شملتهم رحمة هذه الشريعة وقيمها.

*﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، إعلان التوحيد وتأصيل البلاغ: أمر بالجهر بدعوتهم للتوحيد الذي هو لب الوحي.

الإنذار والمفاصلة *﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي أعلمتكم بالحروب والمفاصلة علمًا مستويًا لا خفاء فيه ولا غدر، وأن لا صلح بيننا، مع تفويض علم وقت العذاب لله، يعني: القيامة.

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطَّلَع النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم علينا ونحن نتَذاكَرُ فقال ما تَذكُرونَ قالوا نَذكُرُ الساعةَ قال إنها لن تَقومَ حتى ترَوا قبلَها عشْرَ آياتٍ فذَكَر الدُّخانَ والدجَّالَ والدابَّةَ وطُلوعَ الشمسِ من مَغرِبِها ونُزولَ عيسى ابنِ مريمَ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ويَأجوجَ ومَأجوجَ وثلاثَ خُسوفٍ خَسفٌ بالمَشرِقِ وخَسفٌ بالمَغرِبِ وخَسفٌ بجزيرةِ العربِ وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ من اليمَنِ تَطرُدُ الناسَ إلى مَحشَرِهم [1].

*﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ تأخير العذاب والاستدراج بالنعمة قد يكون فتنة ومتاعاً مؤقتاً حتى يأتي أمر الله.

*﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، هكذا نصل خاتمة السورة: تفويض أمر الفصل والتسليم الكامل لله الحكم العدل.

وفيها التوسل بصفة "الرحيم" و"الرحمن": رغم موقف التكذيب والمواجهة، يختم الرسول الدعوة بقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ﴾ ليظل باب الرحمة واللجوء والاستعانة مفتوحاً أمام افتراءاتهم وتكذيبهم ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

*

*

*

*

*

([1]) – أخرجه مسلم (2902)، وأخرجه الدارقطني في الإلزامات والتتبع (182)، وقال: لم يرفعه غير فرات عن أبي الطفيل من وجه يصح مثله [وروي] موقوفا.

سورة الحج

تسمية السورة

(سورة الحج) وهو الاسم المشهور والثابت توقيفياً في كتب التفسير والحديث والمصاحف، ولا يعرف لها اسم آخر غيره، سميت به لاشتمالها على مقطع من الآيات تتحدث عن الإعمال القلبية الإيمانية في مناسك الحج.

وهي سورة مختلف فيها أمكية هي أم مدنية، **والراجح :**إنها سورة مختلطة، فبعض آياتها مكية وبعضها مدنية، فيها آيات نزلت بمكة وآيات نزلت بالمدينة، كما اختلف العلماء في عد آياتها بين سبع وسبعين وثمان وسبعين آية، وذلك لاختلافهم في عد الفواصل فيها.

سبب النزول

لم يصح سبب نزول للسورة كلها، لكن ورد في بعض آياتها أسباب وفضائل

عَن أبي ذَرٍّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: نَزَلَت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:19] في سِتَّةٍ مِن قُرَيشٍ: عَليٍّ، وحَمزةَ، وعُبَيدةَ بنِ الحارِثِ، وشيبةَ بنِ رَبيعةَ، وعُتبةَ بنِ رَبيعةَ، والوليدِ بنِ عُتبةَ [1].

وعن قيس بن عباد أو ابن عبادة: عَن عَليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: أنا أوَّلُ مَن يَجثو بينَ يَدَيِ الرَّحمَنِ للخُصومةِ يَومَ القيامةِ. قال قَيسٌ: وفيهم نَزَلَت: ﴿هذانِ خَصمانِ اختَصَموا في رَبِّهِم﴾ [الحج: 19] ، قال: هُمُ الذينَ بارَزوا يَومَ بَدرٍ: عَليٌّ، وحَمزةُ، وعُبَيدةُ، وشَيبةُ بنُ رَبيعةَ، وعُتبةُ بنُ رَبيعةَ، والوليدُ بنُ عُتبةَ [2]..

وعنِ ابنِ عباسٍ قال: لما فرغَ إبراهيمُ عليْهِ السلامُ من بناءِ البيتِ قيلَ له أذِّنْ في الناسِ بالحجِّ، قال: ربِّ وما يبلغُ صَوْتي؟ قال: أذِّنْ وعليَّ البلاغُ. قال فنادى إبراهيمُ: يا أيُّها الناسُ كُتِبَ عليكُمُ الحجُّ إلى البيتِ العتيقِ، فسمِعَهُ من بينَ السماءِ والأرضِ، أفلا ترونَ أن الناسَ يَجيئونَ مِن أقصى الأرضِ يُلبونَ [3].

بسم الله الرحمن الرحيم

*﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم

---

[1] - أخرجه البخاري (3966) ومسلم (3033) باختلاف يسير.

[2] - أخرجه البخاري (4744) وعبد الرزاق في ((تفسيره)) (1905) باختلاف يسير، والحاكم (3456) بنحوه، والخلال في ((السنة)) (736) دون قول قيس..

[3] - أخرجه ابن أبي شيبة (32478)، والحاكم (3464)، والبيهقي (9921) جميعهم بلفظه.، وقال ابن حجر في فتح الباري (ج3/ص478): إسناده قوي.

بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(5) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (10) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ (13) cإِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ(15) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ(16) ﴾

هذه اليات الأولى من سورة الحج تُعدّ ديباجة السورة التي تهز الوجدان؛ حيث تأخذ بمجامع القلوب والعقول في رحلة تصويرية مشهودة تبدأ بالهول المطلق، وتثنّي بالبرهان العقلي والنفسي والكوني على البعث، وتعرّي أنماط الشخصيات البشرية الجاحدة والمترددة.

التهويل الخاطف والنداء الشامل: *﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

إشراقة بلاغية: النداء العام ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: تنبيه عالمي يشتمل المكلّفين أجمعين، واستحواذ على الانتباه فوراً قبل إلقاء الخبر الهائل.

التنكير في ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾: تنكير للتهويل والتعظيم؛ أي شيء خارج عن نطاق المقاييس والإدراك البشري.

الدقة اللغوية الإعجازية: عدل عن لفظة "مرضع" (وهي الوصف الثابت لمن شأنها الإرضاع)، إلى ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ بالتاء، وهي التي تُباشر فعل الإرضاع بالفعل والثدي في فم طفلها! والتعبير بـ ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ بصيغة الماضي يدل على انقطاع الصلة الشعورية التامة حتى عما صدر منها للتو.

والذهول نسيان ما من شانه أن لا ينسى؛ إما لأنه حاضرن أو لأن علمه جديد، وإنما ينسى لشاغل عظيم عنه، فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنه أدل على شدة الشاغل، وشفقة الأم المرضع على ولدها أشد من شفقة الأب فضلا عن غيره، فدل بدلالة الأولى على ذهول غيرها من النساء والرجال ؤ

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدِم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسبْيٍ، فإذا امرأةٌ من السَّبيِ تسعَى، إذ وجدت صبيًّا في السَّبيِ فأخذته وألصقته ببطنِها وأرضعته، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أترون هذه طارحةً ولدَها في النَّارِ؟ قلنا: لا واللهِ، وهي تقدرُ أن لا تطرحَه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللهُ أرحمُ بعبادِه من المرأةِ بولدِها [1].

وهذا أشد هولاً من قوله تعالى في سورة المؤمنون: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) [المؤمنون:101].

المفارقة النفسية ﴿سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾: الجملة الاستدراكية تُعبر عن "الذهول العقلي": هم يتصرفون كمن فقد عقله بالشراب، لكن السبب ليس السكر الخسيس، بل العذاب الإلهي المهول الذي طغى على حواسهم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقالُ لآدمَ: أخرِجْ بعثَ النَّارِ، قال: فيقولُ: وما بعثُ النَّارِ؟ فيقولُ: من كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعينَ، فعند ذلك يشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ الحاملُ حملَها، وترَى النَّاسَ سُكارَى وما هُم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ، قال: قلنا: فأين النَّاجي يا رسولَ اللهِ؟! قال: أبشِروا! فإنَّ واحدًا منكم، وألفًا من يأجوجَ ومأجوجَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجنَّةِ! فكبَّرْنا، وحَمدْنا اللهَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أنْ تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ! فكبَّرْنا وحَمدْنا اللهَ، ثمَّ قال: إنِّي لأطمعُ أنْ تكونوا نصفَ أهلِ الجنَّةِ، إنَّما مثلُكم في النَّاسِ كمثلِ الشَّعرةِ البيضاءَ في الثَّورِ الأسودِ، أو كمثلِ الشَّعرةِ السَّوداءَ في الثَّورِ الأبيضِ [2].

قال الحسن البصري: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ من الخوف، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ من الخمر، وقيل: معناه ترى الناس كأنهم سكارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [3]..

---

1 - أخرجه أبو نعيم في الحلية (ج3/ص264)، والبخاري (5999) مطولًا، ومسلم (2754)، والبزار (287) مطولًا، والطبراني في (المعجم الأوسط) (3011) جميعًا باختلاف يسير.

2- أخرجه البخاري (3348)، ومسلم (222) بلفظه.

3- انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (مالم التنزيل) (ص780).

ذكر البقاعي - رحمه الله - عن (مناسبات القرآن): نزل هذا النداء المزلزل ليتناسب مع اسم السورة (الحج)؛ فالحج فيه محشر مصغر وازدحام ومواقف، فتذكير الناس بـ "المحشر الأكبر" هو أعظم تقوى لرب العالمين.

أما سيد قطب – رحمه الله – فيُصور فهمه لهذه المشاهد بأسلوبه التصويري المشهود؛ فالنص لا يخبرك عن زلزال، بل يجعلك تراه وتعيشه: حوامل يُلقين أجنتهنّ، وأمهات يذهلن عن أطفالهنّ الرضع، وبشر يموجون كالسكرى.

نماذج الجدال والاتباع الأعمى: *﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

إشراقة بلاغية أسلوبية: التقسيم النفسي: الانتقال المباشر من هول القيامة إلى الواقع البشري الغريب! أناس يشاهدون هذه الدلائل ويسمعون هذا التهويل، ومع ذلك يجادلون.

التعبير بـ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: سلب كامل لمستند الجدال، فلا هو علم عقلي ولا نقل متواتر.

نُزلت هذه الآية في أمثال النضر بن الحارث كان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: يتبع في جداله بغير علم ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ المريد: المتمرد المستمر في الشر[1].

التهكم التهديدي ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: استعمال الشارع لفظ "الهداية" مع "عذاب السعير" هو ما يسميه البلاغيون: استعارة تهكمية؛ لأن الشياطين تُري أتباعها الغواية كأنها هداية.

يُحلل ابن القيم – رحمه الله - هنا طبيعة العقل المعطل؛ فهذا المجادل لم يستند إلى النور، فتولى الشيطان "المريد" (الشهواني المتمرد)، والعقوبة الإلهية حتمية قدرية: من تولى الغاوي، قاده حتماً إلى السعير.

برهان البعث الثلاثي: الخلق، والنمو، والحيوان الكوني: *﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ

1- البغوي: تهذيب تفسير البغوي (مالم التنزيل) (ص781).

مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

إشراقة بلاغية: من أعظم أدلة القرآن البلاغية والمنطقية؛ قياس الإعادة على الإبداء (من أوجدك أول مرة قادر على إعادتك):

السلم التدرجي بالتراخي ﴿ثُمَّ﴾: استخدام حرف العطف "ثم" أفاد التراخي والتحول المشهود بين طور وطور (تراب ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة).

التقسيم البديع ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾: إشارة بيانية شمولية تجمع بين ما سيكتمل خلقه وما يُسقط أفقياً.

وفي المسائل الفقهية يدرس العلماء مستدلين بهذه الآية أحكام السقط: فلا يجوز للمرأة النفساء أن تصوم، ولا يصح صيامها، وعليها قضاء الأيام التي أفطرتها بسبب النفاس. والنفاس هو الدم النازل من المرأة بسبب الولادة.

وإذا أسقطت المرأة فلا يعتبر الدم النازل منها دم نفاس إلاّ إذا أسقطت ما تبين فيه خلق الإنسان.

والتخليق لا يبدأ في الحمل قبل ثمانين يوماً، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوح) [1].

فدل هذا الحديث على أن الإنسان يمر بعدة مراحل في الحمل: أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين أخرى علقة، ثم أربعين ثالثة مضغة. ثم ينفخ فيه الروح بعد تمام مائة وعشرين يوماً.

والتخليق يكون في مرحلة المضغة، ولا يكون قبل ذلك، لقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) [الحج:5].

فوصف الله تعالى المضغة بأنها مخلقة وغير مخلقة، ومعنى التخليق أن تظهر في الحمل آثار تخطيط الجسم كالرأس والأطراف ونحو ذلك.

وعلى هذا.. فلو أجريت لامرأة عملية إجهاض أو أسقطت، إن كان ذلك قبل ثمانين يوماً من الحمل فالدم النازل ليس بدم نفاس، بل هو دم استحاضة فلا يمنعها من الصلاة والصوم، وعليها أن تتوضأ لكل صلاة.

1- رواه البخاري (3208).

وإذا كان الإجهاض بعد نفخ الروح في الجنين –أي بعد مائة وعشرين يوماً من الحمل- فالدم النازل دم نفاس قطعاً.

وإذا كان الإجهاض بعد ثمانين يوماً وقبل تمام مائة وعشرين فإنها تنظر في السقط فإن ظهر فيه تخليق فالدم النازل نفاس، وإن لم يكن فيه تخليق فالدم النازل استحاضة.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ولا يثبت النفاس إلاّ إذا وضعت ما تبين فيه خلق إنسان، فلو وضعت سقطاً صغيراً لم يتبين فيه خلق إنسان فليس دمها دم نفاس، بل هو دم عرق، فيكون حكمها حكم الاستحاضة، وأقل مدة يتبين فيها خلق إنسان ثمانون يوماً من ابتداء الحمل، وغالبها تسعون يوماً. ا.هـ [1].

والنفساء تترك الصلاة والصوم حتى تطهر فإذا طهرت من الدم اغتسلت وصلت وصامت.

وإذا استمر بها الدم أكثر من أربعين يوماً، فإذا وافقت الزيادة عادتها فهي حائض، وإن لم توافق عادتها فهي مستحاضة تغتسل وتصلي وتصوم وتفعل ما يفعله الطاهرات [2]. وفي المسالة أقوال اخرى تراجع في مضانها. والله اعلم.

أما الطفل السقط فلا يأخذ أحكام الإنسام من تغسيله والصلاة عليه إلا إذا سقط لأربعة أشهر حيث يكون نفخت فيه الروح، وإذا خرج طفلا واستهل فإنه يرث وإن مات بعد ذلك لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: إذا استهلَّ المولودُ صارِخًا وَرِثَ [3].

شرَع الإسلامُ تشريعاتٍ واضحةً للميراثِ؛ لحِفْظِ أموالِ النَّاسِ وحُقوقِهم في التَّرِكاتِ والأموالِ الموروثةِ.

وفي هذا الحديثِ يَقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم: "إذا استَهَلَّ المولودُ وَرِثَ"، أي: إذا نزَل المولودُ مِن بطنِ أمِّه حيًّا، وصَرَخ وسُمِع صوتُه فقدِ استَحقَّ الميراثَ، وأصبح صاحبَ حقٍّ فيه، أمَّا إذا نزَل ولم تَظهَرْ منه أيُّ علاماتٍ للحياةِ فلا يَرِثُ.

1- انظر العثيمين: رسالة "الدماء الطبيعية للنساء" (ص:40)، والشرح الممتع (ج1/ص509).
2- وانظر ايضا الشرح الممتع لابن عثيمين طبعة العبيكان ج١/ ص ٣٩٨.

3- انظر الألباني: إرواء العليل (1707)، و أخرجه أبو داود (2920) باختلاف يسير.

وفي يوم سابعه يقع عنه ويسمى ويحلق إلى غير ذلك من أحكام المولود، لحديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقتِهِ تذبحُ عنْهُ يومَ السَّابعِ ويُحلَقُ رأسُهُ ويُسمَّى [1].

فهذا التطور المادي والعقلي البشري: رحلة عمرية كاملة تلخص غاية وجود الإنسان (طفل ثم أشد ثم يتوفى أو يرد إلى أرذل العمر كيلا يعلم من بعد علم شيئاً).

التصوير الأسلوبي لحركة الأرض (الحياة الكونية): ﴿هَامِدَةً﴾: ميتة ساكنة، فينزل عليها الماء فتهتز وتربو: ﴿اهْتَزَّتْ﴾: الحركة الأولى للإنبات وانتفاخ الحبات. ﴿وَرَبَتْ﴾: انتفاخ التربة بالماء وتمددها، ويخرج منها الربيع ﴿بَهِيجٍ﴾: إضفاء جمال حسي ونفسي يُسَرّ به الناظر.

يُبرز ابن عاشور - رحمه الله - هذا التناسب؛ (التحرير والتنوير) فالقرآن انتقل من الدليل في الأنيق البشري (الداخل) إلى الدليل في الأفق الكوني (الخارج)؛ فالرب الذي ينقل العلقة إلى بشر سوياً هو الذي يحيي الأرض الهامدة.

يركز محمد قطب – رحمه الله - على قيمة الإنسان التي تضيع في "أرذل العمر"، وكيف يذكّر الله الإنسان بضعفه الذاتي المكتسب بعد القوة، ليدرك أنه محكوم بقدرة أعلى لا مناص منها.

*﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾

تُسمى هذه بـ "السلسلة البرهانية"؛ حيث تنصب كل الأدلة السابقة (خلق الإنسان وإحياء الأرض) لتنساب في 5 حقائق يقينية كبرى:

أن الله هو الحي، وأنه يحيي الموتى، أنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، الجملة الاسمية والتوكيد بـ ﴿أنَّ﴾: توكيد متتالٍ لقطع كل شك أو ريب.

نموذج المستكبر المستعلي وصورة عقابه: *﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

1- أخرجه ابن ماجه (3165) واللفظ له، وأخرجه أبو داود (2838)، والترمذي (1522) باختلاف يسير

إشراقة أسلوبية بلاغية: التشفي الحركي البلاغي ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾: "العِطف" هو الجانب والرقبة. "ثاني عطفه" هي صورة حركية جسدية تُجسّد الكبرياء والميل استكباراً وإعراضاً عن الحق.

المقابلة التراتبية لنفي العلم: لا علم: (عقل شخصي)، ولا هدى: (استدلال ببصيرة وتبعية لمرشد)، ولا كتاب منير: (نص ووحي إلهي معصوم)، أي أنه عارٍ من المنافذ الثلاثة للمعرفة!

المقابلة بين الخزي والحريق: خزي في الدنيا (مهانة نفسية) مقابل عذاب الحريق في الآخرة (عذاب جسدي ونفسي).

قيل المراد من هذه الآية النضر بن الحارث كسابقتها، كرر الحديث عنه تبيينا لحالتي جداله، ففي الأولى المراد اتباعه ما تمليه عليه سادة الكفر، وفي هذه الآية المراد تقليده الأعمى لهم.

وقيل المراد بهذه الآية غيره؛ أبو جهل والاخنس شريق، فالمراد بالآية (8) المقلدون، بفتح اللام، أئمة الكفر، والمراد بالآية (3) المقلدون، النضر بن الحارث في طريقة تقليدة، ومن شابهه. والله أعلم [1]..

قال مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقتادة: جاء أبي بن خلف [لعنه الله] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم وهو يفتته ويذريه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال: " نعم ، يميتك الله تعالى ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار" [2]. .

التفات الخطاب ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾: تحول من الغيبة إلى الخطاب المواجه المباشر لتبكيت هذا المستكبر يوم القيامة وتذكيره بقبح عمله.

نموذج المتردد المادي "عابد الحَرْف": *﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ...﴾

الإيمان على حَرْف (طرف: إن أصابه خَيْر (اطمأن واستقر ظاهرياً) إن أصابته فِتْنَة (انقلب على وجهه ونكص)

---

[1] - انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج7/ص369).

2- أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن كثير في تفاسيرهم، وانظر موقع إسلام ويب تفسير سورة يس.

هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة تمثلية ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: الحرف هو: "حافة الجبل" أو "طرف الشيء". صوّر القرآن حالة هذا المنافق أو ضعيف الإيمان كمن يقف على شفا جرف هارٍ؛ ليس له ثبات ولا ينزل إلى وسط الإيمان المستقر.

التضاد والتطابق الشرطي: إن أصابه خَيْر اطْمَأَنَّ بِهِ، وإن أصابته فِتْنَة انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

المبالغة والتأكيد ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾: لا حصل نفع الدنيا بالارتياح، ولا فاز بنعيم الآخرة.

اللمسة التفسيرية والتربوية: يُحلل ابن القيم – رحمه الله - هذه الآية كأعمق تحليل لنفسية "المتفيقه المادي" الذي يجعل الدين خادماً لدنياه؛ فإن صلحت دنياه مدح الدين، وإن ابتُلي وطالت عليه المحنة، اتهم ربه ونكص.

*﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إن عصاه فلم يعبده، ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ﴾ إن أطاعه أي أطاع الشياطين أو الوساوس الآمرة بعبادته، وعبده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحق والرشد.

﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾: بيان منطقي لسخافة الشرك؛ فالأصنام والأنداد نفعها معدوم، بل إن القرب منها يستجلب الضرر المحض.

فإن قيل: قال في الآية قبلها ﴿يدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ﴾ أجاب البغوي - رحمه الله -: أنّ هذا على عادة العرب أنهم يقولون لما لا يكون أصلاً: بعيدُ، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، أي: لا رجع أصلاً، فلما كان نفع الصنم بعيد، أي لا نفع فيه أصلاً، قيل: إن ضره أقرب [1].

﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ أي: الناصر، وقيل: المعبود، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي الصاحب والمحافظ، يعني: الوثن، والعرب تسمي الزوج عشيرا لأجل المحافظة، وتسمي القبيلة عشيرة للنصرة والمحافظة كذلك.

المقابلة بوعد المؤمنين وصورة المغتاظ المايئس: *﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يفعل ما يريد ۝ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾

1- البغوي: تهذيب تفسير البغوي (مالم التنزيل) (ص783).

*﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إنّ الله يفعل ما يريد﴾، في ذلك ما فيه من التعريض بالمشركين الذين يجادلون في الله بغير علم، فهؤلاء خصومهم المؤمنون قد فازوا ونجوا ودخلوا الجنة.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾: السبب: الحبل، السماء: قيل: سقف بيته، فيختنق، أو السماء المظلة، ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ بعد الاختناق، وقيل: أي ليمد الحبل حتى يموت مختنقا ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ صنيعه وحيلته، ﴿مَا يَغِيظُ﴾، قال البغوي: هو كما يقال للحاسد: إن لم ترض هذا فاختنق ومت غيظاً.

فهي بمعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:119].

قال ابن حزم الأندلسي:

دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً.. من مات من غيظه عندي له كفنُ

فالمعنى البياني المعجز: من كان يغيظه أن الله ناصرٌ رسوله ودينه في الدنيا والآخرة، فليصنع ما يشاء، وليخنق نفسه بحبل في السقف، فهل حيلته وخنقه لنفسه يُذهبان غيظه؟ لن يغير ذلك من نصر الله شيئاً!

بيّن ابن عاشور: أنّ هذه الآية حاسمة في تثبيت قلوب المؤمنين ومراغمة أنوف الكفار والمنافقين؛ فنصر الله قانون ماضٍ لا تعطله حيل البشر ولا غيظ الصدور.

الختام بـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: عودة لربط هذا السياق بالقرآن الكريم؛ فهو الميزان الناطق، والفيصل الهادي لمن فتح قلبه للحق واستسلم لرب العالمين.

*﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (18) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ

الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (35) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37))

هذه المجموعةُ المباركةُ في هذا الدرس الثاني من سورة «الحج» هي مَلحمةٌ بيانيةٌ وسياقية تهتزّ لها القلوب؛ إذ تأخذ بلب القارئ وتلابيبه في رحلةٍ تتدرج من القضاء الكوني العادل، إلى السجود الكوني الشامل، ثم إلى الصراع الدائم بين أهل الحق والباطل وما أُعدَّ للفريقين، وصولاً إلى تأسيس البيت العتيق وتشريع الحج ومقاصده الإيمانية والروحية.

الفصل الإلهي والسجود الكوني: *﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

التأكيد المكرر (إنَّ ... إنَّ): توكيد الأول للتنبيه على الحصر، وتوكيد الثاني لتقرير حتمية القضاء.

الترتيب الاستقرائي: ابتدأ بأهل الإيمان المطلق، ثم أتباع الشرائع السماوية السابقة (الذين هادوا، الصابئين، النصارى)، ثم المجوس (عبدة النيران)، وختم بالمشركين (الذين جعلوا لله أنداداً).

إشراقة بلاغية: يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ إيراد هذه الفرق الست جاء للإحاطة بكافة الاتجاهات والديانات المقابلة للإسلام، وإعلامهم بأن الخلاف البشري لن يُفضّ بمهاترات الدنيا بل بـ الفصل الإلهي الشامل يوم القيامة.

كما يبرز سيد قطب – رحمه الله - مشهد «المحكمة الكبرى»؛ حيث تُرصَف الأمم والفرق أمام الحاكم المطلق، فالشهادة هنا علمية حاضرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

*﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩﴾

إشراقة بلاغية: الاستفهام التقريري (أَلَمْ تَرَ): نقلٌ للنظر من واقع الناس المُختلِفين في الآية السابقة إلى المشهد الكوني المتسق؛ ليكشف أن الكون كله متناغم في العبادة.

التقسيم البديع للساجدين: جمع بين العاقل (مَن) وغير العاقل (الشمس، القمر، الجبال...) ليدل على أن السجود هنا سجود خضوع وقهر وتكليف.

وقيل: سجودها بمعنى الطاعة، فإنه ما من جماد إلاّ وهو مطيع لله خاشع له، مسبح له، قال البغوي: وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة [1].

المقابلة الأسلوبية: قال ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ (أي ساجدون طوعاً) وقابلها بـ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (لأنهم استكبروا عن السجود الاختياري).

يوضح ابن القيم – رحمه الله - أنّ سجود المخلوقات الجمادية والكواكب هو سجود انقياد وتسبيح حقيقي يناسب كل مخلوق، بينما الإنسان أُعطي حرية الاختيار، فمنهم من سجد بقلبه وجوارحه، ومنهم من شذّ عن إيقاع الكون المسبح.

أمّا سيد قطب – رحمه الله – فيسجل: «إنه مشهد كوني رائع يسجد فيه الوجود كله لله، خشوعاً وخضوعاً، فتنسجم الكائنات إلاّ العتاة الشاذين من بني الإنسان الذين حق عليهم العذاب».

الخصومة الكبرى وعاقبة الكافرين والمؤمنين: *﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

التثنية ثم الجمع (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا): «خصمان» مثنى مراد به الفريقان (فريق المؤمنين وفريق الكافرين)، ولذلك عاد الضمير عليهما بالجمع (اخْتَصَمُوا).

استخدام لفظ ﴿قُطِّعَتْ﴾ - وهو من التفصيل والخياطة – هُيئت النار وغدت أثواباً تُفصَّل على أجسادهم قسراً.

1- البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص784).

التدرج في عذاب الشدة: صبّ الحميم فوق الرؤوس، ثم انصهار ما في البطون والجلود، ثم الضرب بمقامع الحديد، ثمّ الإعادة والتكرار الشديد عند محاولة الخروج.

يربط البقاعي – رحمه الله - الآية بسياقها، فبعد أن ذكر الاختلاف بين الملل، بيّن أن مرجع هذا الاختلاف في الحقيقة إلى فرقتين لا ثالث لهما: مؤمن بالله وكافر به.

أمّا البغوي – رحمه الله - (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا) أَيْ: جَادَلُوا فِي دِينِهِ وَأَمْرِهِ وَالْخَصْمُ اسْمٌ شَبِيهٌ بِالْمَصْدَرِ، فَلِذَلِكَ قال: {اخْتَصَمُوا} بِلَفْظِ الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)، وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَيْنِ الْخَصْمَيْنِ. فقيل: هُمُ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ علي وحمزة وعبيدة وشيبة ابن رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بن عتبة. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَحْنُ أَوْلَى بالله منكم وَأَقْدَمُ مِنْكُمْ كِتَابًا، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ: نَحْنُ أَحَقُّ بِاللَّهِ آمَنَّا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَبِيِّكُمْ وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ نَبِيَّنَا وكتابنا وكفرتم به حسداً، فهذه خصومتهم في ربهم.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله مرفوعا: إنَّ الحميمَ لَيُصَبُّ على رُؤوسِهم، فيَنفُذُ الجُمجمةَ حتى يَخلُصَ إلى جَوفِه، فيَسلُتُ ما في جوفِه حتى يَمرُقَ مِن قدمَيْه [1].

*﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(22) ﴾.

*﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٍ، وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾

المقابلة والتضاد (المشهد المقابل) والتعريض بالمشركين: مقابل الثياب المقُطّعة من نار: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

مقابل الحميم والغم والصراخ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (وهو الحمد، والتسبيح، والتحية بالسلام).

1- أخرجه الترمذي (2582)، وقال: (هذا حديث غريب صحيح)، وأحمد (8864) واللفظ له، وضعف شعيب الأرناؤط إسناده، وذكره البغوي في تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص786) مستدلا به.

إشراقة بلاغية والأثر النفسي: إضافة الصراط إلى ﴿الْحَمِيدِ﴾ (اسم الله المحمود): إشارة إلى أن طريق الله في الدنيا والآخرة هو عين الحمد والرشاد.

الصد عن المسجد الحرام وتأسيس الحج: *﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

إشراقة بلاغية: الانتقال من الماضي للمضارع (كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ): الكفر ثابتٌ فيهم، والصدّ تجدّدٌ واستمرارٌ منهم.

التسوية البنائية: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾؛ المساواة في حرمته وعمارته والتعبد فيه بين المقيم والطارئ.

التعبير بالنية (وَمَن يُرِدْ): لم يقل "ومن يفعل" بل قال "ومن يرد"، تغليظاً لحرمة المكان؛ فمجرد همّ الإنسان بالمعصية أو الظلم فيه يتوجّب العذاب.

بخلاف غيره من البقاع، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فمَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له عِندَه عَشرَ حَسَناتٍ، إلى سَبعِ مِائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له سَيِّئةً واحِدةً [1].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ.

عن عمر بن الخطاب وأبي أمامة الباهلي رضي الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن لَبِسَ الحَريرَ في الدُّنيا لَم يَلبَسْه في الآخِرةِ [2].

وتَحريمُ لُبسِ الحريرِ الطَّبيعيّ مَخصوصٌ بالرِّجالِ دونَ النِّساءِ؛ لِقيامِ دَلائلَ أُخرى ورَدتِ بها الرِّواياتُ الصَّحيحةُ تَدلُّ على جَوازِ لُبْسِ النِّساءِ للحريرِ، وعلى أنَّ الرِّجالَ يُسمَحُ لهم ببَعضِ الحريرِ في الثِّياب بما لا يُجاوِزُ عَرْضُه إصْبَعينِ إلى أربعِ أصابعَ تُتَّخذُ أعْلامًا وحاشيةً للثِّيابِ، كما في الصَّحيحينِ، عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه: «نَهى نَبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن لُبسِ الحريرِ إلَّا مَوضِعَ إصبعينِ، أو ثَلاثٍ، أو أربعٍ [3].

1- أخرجه البخاري (649)، ومسلم (131) باختلاف يسير.

2- أخرجه مسلم (2069، 2074).

3- أخرجه مسلم (2069) بلفظه، والترمذي (1721) باختلاف يسير، وأصله في البخاري (5828).

*﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: وطأنا، قال ابن عباس: جعلنا، ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: الربط بين التوحيد والمكان: قبل الإعلان عن الحج، جاء التكليف التأسيسي لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾؛ فالتطهير الحسّي والمعنوي من الشرك شرطٌ رئيسي قبل الشعائر.

والتوحيد هو بوابة قبول العمل، ولذلك جاء في مطلع وصية لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]، وكذا بقية الوصايا في القرآن: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:23]، والوصايا العشر في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ . ﴾ [الأنعام:151].

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم المشركين من الحج بعد فتح مكة وقبل حجة الوداع، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لا يطوفُ بالبيتِ عُريانٌ [يعني حديث: بَعَثَنِي أبو بَكْرٍ في تِلْكَ الحَجَّةِ في مُؤَذِّنِينَ يَومَ النَّحْرِ، نُؤَذِّنُ بمِنًى: أنْ لا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ ولَا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيَانٌ قَالَ حُمَيْدُ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ: ثُمَّ أرْدَفَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلِيًّا، فأمَرَهُ أنْ يُؤَذِّنَ ببَرَاءَةٌ، قَالَ أبو هُرَيْرَةَ: فأذَّنَ معنَا عَلِيٌّ في أهْلِ مِنًى يَومَ النَّحْرِ: لا يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ ولَا يَطُوفُ بالبَيْتِ عُرْيَانٌ.]

وفي رواية عنه: بعثني أبو بكرٍ في تلك الحجةِ في مؤذنينَ بعثهم يومَ النحرِ يؤذنون بمنًى: ألا لا يحجُّ بعدَ العامِ مشركٌ ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ، ثم أردف رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه فأمره أن يُؤذِّنَ ببراءةَ، فأذَّن عليٌّ معَنا يومَ النحرِ في أهلِ منًى ألَّا يَحُجَّ بعدَ العامِ مشركٌ ولا يطوفَ بالبيتِ عريان [1].

إشراقة بلاغية للحج ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾:

رِجَالاً: أي مشاةً على أرجلهم (وليس رجالاً بكونهم ذكوراً فقط)، عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ: الضامر هو البعير الضعيف من طول السفر والإجهاد، وفي هذا تصويرٌ مهيب للمشاق التي يتحملها العشاق للوصول إلى البيت.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: كلمة (عميق) هنا أبلغ من (بعيد)؛ لأنها تشعر بالبعد المترامي الأطراف، والانخفاض السحيق للأرض المسلوك منها.

1- أخرجه البخاري (4655)، ومسلم (1347) باختلاف يسير.

*﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾: نكّر لفظ "منافع" ليفيد العموم المطلق (منافع إيمانية، تجارية، سياسية، اجتماعية، وتعارفية بين شعوب الأرض).

لِيَشْهَدُوا} لِيَحْضُرُوا، {مَنَافِعَ لَهُمْ} قال سعيد بن المسيب، ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة. وقال سعيد بن جبير: التجارة، وَهِيَ رِوَايَةُ ابْنِ زَيْدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: الْأَسْوَاقُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: التِّجَارَةُ وَمَا يَرْضَى اللَّهُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ يَعْنِي عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ. قِيلَ لَهَا "مَعْلُومَاتٍ" لِلْحِرْصِ عَلَى عِلْمِهَا بِحِسَابِهَا مِنْ أَجْلِ وَقْتِ الْحَجِّ فِي آخِرِهَا. وَيُرْوَى عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهَا يَوْمُ النَّحْرِ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَهُ، وَفِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا يَوْمُ عَرَفَةَ وَالنَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْمَعْلُومَاتُ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ يَعْنِي: الْهَدَايَا، وَالضَّحَايَا، تَكُونُ مِنَ النَّعَمِ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما العَمَلُ في أيَّامٍ أفضَلَ منها في هذه، قالوا: ولا الجِهادُ؟ قال: ولا الجِهادُ، إلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخاطِرُ بنَفسِه ومالِه، فلَم يَرجِعْ بشَيءٍ [1].

وَاخْتَارَ الزَّجَّاجُ أَنَّ الْأَيَّامَ الْمَعْلُومَاتِ: يَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ، لِأَنَّ الذِّكْرَ عَلَى بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ يَدُلُّ عَلَى التَّسْمِيَةِ عَلَى نَحْرِهَا، وَنَحْرُ الْهَدَايَا يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أَمْرُ إِبَاحَةٍ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ مِنْ لُحُومِ هَدَايَاهُمْ شَيْئًا، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْهَدْيَ إِذَا كَانَ تَطَوُّعًا يَجُوزُ لِلْمُهْدِي أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ وَكَذَلِكَ أُضْحِيَّةُ التَّطَوُّعِ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ فِي قِصَّةِ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: وَقَدِمَ عَلِيٌّ بِبَدَنٍ مِنَ الْيَمَنِ وَسَاقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ بَدَنَةٍ فَنَحَرَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَةً بِيَدِهِ وَنَحَرَ عَلِيٌّ مَا بَقِيَ، ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُؤْخَذَ بِضْعَةٌ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ فَتُجْعَلَ فِي قِدْرٍ، فَأَكَلَا مِنْ لَحْمِهَا وَحَسِيَا مِنْ مَرَقِهَا [2].

وَاخْتَلَفُوا فِي الْهَدْيِ الْوَاجِبِ بِالشَّرْعِ هَلْ يَجُوزُ لِلْمُهْدِي أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا؟ مِثْلَ دَمِ التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ وَالدَّمِ الْوَاجِبِ بِإِفْسَادِ الْحَجِّ وَفَوَاتِهِ وَجَزَاءِ الصَّيْدِ؟

فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ، وَكَذَلِكَ مَا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالنَّذْرِ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يَأْكُلُ مِنْ جَزَاءِ الصَّيْدِ وَالنَّذْرِ، وَيَأْكُلُ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ، وَقَالَ مَالِكٌ: يَأْكُلُ مِنْ هَدْيِ التَّمَتُّعِ وَمِنْ كُلِّ هَدْيٍ

1- أخرجه البخاري (969).
2- مسلم (1218) مطولا.

وَجَبَ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ فِدْيَةِ الْأَذَى وَجَزَاءِ الصَّيْدِ وَالْمَنْذُورِ، وَعِنْدَ أَصْحَابِ الرَّأْيِ يَأْكُلُ مِنْ دَمِ التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ وَلَا يَأْكُلُ مِنْ وَاجِبٍ سِوَاهُمَا [1].

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾: القضاء على شعث الإحرام والتطهر بعد إتمام الشعائر، مع الطواف بالبيت "العتيق" (القديم المعتق من سلطة الجبابرة).

تعظيم الحرمات والشعائر، والتحذير من الشرك: *﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

رسم القرآن مشهداً حركياً مذهلاً للمشرك: الإيمان: هو العلو والارتفاع (السماء).

الشرك: هو السقوط والانهيار المفاجئ (خرّ من السماء)، والتشتت والتمزق: تخطفه الطير وتمزقه (تمثيل للشبهات والأهواء)، أو تمزقه الريح في مكان سحيق (لا استقرار ولا أمان).

يقول ابن القيم – رحمه الله - في شرح هذه الآية: «الإيمان في علوه وارتفاعه كالسماء، فمن ترك الإيمان سقط من أوج العلو إلى أسفل سافلين، فتتخطفه الشياطين من كل جانب كما تتخطف الطير الساقط من السماء، أو تمزقه أهواؤه وتلقي به في مهواه هلاكه».

*﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، ما الفرق بين الحرمات والشعائر؟:

الحرمات: التكاليف والحدود التي يُمنع التعدي عليها (المناهي والواجبات).أمّا الشعائر فهي المعالم الظاهرة من الدين (كالهدايا، والمناسك، والصلوات) التي يُندب إظهارها واستحسانها.

ولذا كان من السنة أن تشعر الإبل وتقلّد الغنم، قال النووي – رحمه الله تعالى -: (فإن كان من الإبل والبقر فالمستحب أن يشعرها في صفحة سنامها الأيمن ويقلدها نعلين، لما روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم (صلى الظهر في ذي الحليفة ثم أتى ببدنة فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن، ثم سلت الدم عنها ثم قلدها نعلين) ولأنه ربما اختلط بغيره ، فإذا أشعر وقلد تميز، وربما ند فيعرف بالإشعار والتقلد فيرد. وإن كان غنما قلده، لما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله

1- البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص789).

عليه وسلم (أهدى مرة غنما مقلدة)، وتقلد الغنم خرب القرب لأن الغنم يثقل عليها حمل النعال، ولا يشعرها لأن الإشعار لا يظهر في الغنم لكثرة شعرها وصوفها [1].

إشراقة بلاغية إيمانية: أسند التابع إلى ﴿تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾؛ لأن العمل الظاهر لا يكون تعظيماً حقيقياً إلا إذا نبع من تقوى باطنة في القلب.

ذبح والأضاحي ومفهوم المخبتين: *﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ، * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

التحليل اللغوي والنفسي: المُخْبِتِين: الإخبات في اللغة هو الانخفاض من الأرض، والمراد به المتواضعون الخاشعون لله.

صفات المخبتين الأربع (بناء شخصية المؤمن): عاطفية/قلبية: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الهيبة والإجلال)، سلوكية/نفسية: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ (الثبات)، تعبدية/بدنية: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ (الصلة بالخالق)، اجتماعية/مالية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (النفع المتعدي)، قد ضربوا في كل غنيمة بسهم.

*﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾

إشراقة بلاغية فيما يطلقون عليه فلسفة الإسلام: استخدام لفظ (البُدْن): جمع بدنة، وهي الإبل العظام، لبيان ضخامة الشعيرة ومظهر الهدى، وليختار الحاج والمضحي أفضلها حسب قدرته، ويجتنب العيوب.

عن عبيد بن فيروز الديلمي قال: سألتُ البراءَ بنَ عازبٍ ما لا يجوزُ في الأضاحيِّ فقالَ قامَ فينا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وأصابعي أقصرُ من أصابعِه وأناملي أقصرُ من أناملِه فقالَ أربعٌ لا تجوزُ في الأضاحيِّ فقالَ العوراءُ بيِّنٌ عورُها والمريضةُ بيِّنٌ مرضُها والعرجاءُ بيِّنٌ ظلعُها والكسيرُ الَّتي لا تَنقى قالَ قلتُ فإنِّي أكرَه أن يَكونَ في السِّنِّ نقصٌ قالَ ما كرِهتَ فدعهُ ولا تحرِّمهُ علَى أحدٍ. [2].

1- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) المجموع شرح المهذب (ج8/ص357). دار الفكر، 1431 هجري

2- أخرجه أبو داود (2802) بلفظه، والترمذي (1497) ، والنسائي (4370) ، وابن ماجه (3144) جميعا بنحوه ، وصحح الألباني إسناده.

عن حجية بن عدي، عن عليٍّ قال: البَقَرَةُ عن سبعةٍ. قُلْتُ: فإنْ ولَدَتْ؟ قال: اذْبَحْ ولَدَها مَعَها. قُلْتُ: فَالعَرْجَاءُ. قال: إذا بَلَغَتْ المَنْسِكَ. قُلْتُ: فَمَكْسُورَةُ القَرْنِ. فقال: لا بأسَ. أُمِرْنا – أوْ أمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أنْ نَسْتَشْرِفَ العَيْنَيْنِ والأُذُنَيْنِ [1]. قلت: وما يجوز في الأضحية جاز في الهدي والعقيقة.

هيئة الذبح الأفضل (صَوَافَّ): أي قائمة على ثلاث أقدام معقولة الرجل اليسرى، وهو أبهى مشاهد نحر الإبل وأقواها دلالة على الانقياد.

الارتقاء بالمعنى المادي إلى المعنى الروحي: تتجلى هنا حقيقة التوحيد: الله غنيٌ عن النسك والمادة، فليس الهدف هو صبّ الدماء ولا توزيع اللحوم بحد ذاته، وإنما الهدف هو التقوى والامتثال وإعلاء كلمة الله.

يؤكد محمد قطب – رحمه الله - أن الإسلام يحول الحركة المادية الظاهرة (الذبح والنحر) إلى عبادة روحية بالغة العمق؛ فالذبح ليس طقساً وثنياً للإرضاء المادي، بل هو تجريد للقلب، وتكبير لله على هدايته، وإطعام للفقير والقانع والمعتر.

مقارنة آيات الحج بين سورة البقرة وسورة الحج:

سورة البقرة	سورة الحج
طبيعة السورة مدنية (التشريع والأحكام والتأسيس المجتمعي).	مدنية/مكية (سورة التوحيد، العبودية الكونية، والجهاد).
المقصد المحوري التشريع والتفصيل: بيان أحكام الحج، أحصاره، الهدي، الفدية، المواقيت، والمنع من رفث المشركين ومخالفاتهم التشريعية	المقصد العقيدة والرمزية الإيمانية: ربط الحج بملة إبراهيم، التوحيد الخالص، سجود الكائنات، وإعلان الحرب على الشرك.
المخاطَبُ المؤمنون أمة الإسلام: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (تشريع تنظيم العبادة للداخلين في الإسلام)	المخاطب البشرية قاطبة، أمر إبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (نداء تاريخي عالمي قائم على أصل التوحيد).

ويجتمعان – كما أشار محمد قطب رحمه الله - على أن سورة الحج تُعيد العبادة إلى أصلها الإبراهيمي العالمي، لتكون إعلاناً لسقوط الوثنية، وأن الذبح ليس إلا رموزاً للتقوى في القلب، في حين تضع سورة البقرة اللبنات العملية للأمة المسلمة لكي تمارس هذا الحج وفق نظام إسلامي خالص متميز عن الجاهلية.

1- أخرجه الترمذي (1503) وقال : حسن صحيح، وأخرجه أحمد (1312)، وابن خزيمة (2915)، والحاكم (1721) جميعا بنحوه دون:((فإن ولدت؟ قال: اذبح ولدها معها))، والنسائي (4376) مختصرا.

*(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62))

تُشكّل هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة الحج ملحمة قرآنية تشريعية ووجودية، تتدرج بالقلب البشري من مرحلة الاستضعاف والدفاع إلى شرعنة الجهاد ودفع الظلم، ثم إلى قوانين النصر والتمكين، وصولاً إلى سُنن الإملاء والإهلاك للأمم، وتعرية حقيقة العمى الحقيقي (عمى القلوب)، ثم بيان الحرب الفكرية والشبهات (إلقاء الشيطان)، وتختم بـ مشاهد القيامة وقدرة الله الكونية التي تثبت أنّ الله هو الحق المطلق وأمّا دونه فباطل.

*﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، السياق والأسلوب: تمهيد وتوطئة تشريعية وتثبيت لنفوس المؤمنين قبل إذن القتال.

عاش المسلمون طوال العهد المكي مسالمين، ممنوعين من القتال أو رد العقاب بالمثل، يظهر ذلك جليّاً في مثل قوله الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:77]، فهذه الآية من سورة النساء، وسورة النساء مدنية.

كما ظهر ذلك جلينا من قيل النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبادة بن نضلة أحد المبايعين في بيعة العقبة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم أؤمر بذلك [1].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُتَوسِّدٌ بُردةً له في ظِلِّ الكَعبةِ، فقُلنا: ألا تَستَنصِرُ لنا، ألا تَدعو لَنا؟ فقال: قد كان مَن قَبلَكُم يُؤخَذُ الرَّجُلُ فيُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيوضَعُ على رَأسِه فيُجعَلُ نِصفَينِ، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه وعَظمِه، فما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرَمَوتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ، والذِّئبَ على غَنَمِه، ولَكِنَّكُم تَستَعجِلونَ [2].

إشراقة بلاغية: الافتتاح بـ ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد وتثبيت القلوب المضطربة تحت وطأة الأذى.

الفعل المضارع ﴿يُدَافِعُ﴾ (وقرئ: يَدْفَعُ): "يُدَافِعُ" على وزن "يُفَاعِل" تفيد الاستمرار والتجدد والكثرة؛ أي دفاعاً بعد دفاع، وكأن المقابلة مستمرة بين الحق والباطل والله هو المشترك في الدفاع عن عباده.

أي: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين، ويمنعهم من المؤمنين، قال سيد قطب رحمه الله -: وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه سيتولى الدفاع عنهم، فهم في حمايته **[3]**.

1- أخرجه أحمد (15798) واللفظ له، وابن حبان (7011)، والطبراني (87/19(174)) (، وقال شعيب الأرناؤوط عن إسناده: قوي.
2- أخرجه ألبخاري (6943) من أفراد البخاري على مسلم.
3- سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2424).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾: أي: خوان في أمانة الله، كفور لنعمته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: خانوا الله فجعلوا معه شريكاً، وكفروا نعمته، وهذا تعليل لسنة الدفاع؛ فالكفار جمعوا بين الخيانة (خيانة العهد) والكفران (كفر النعمة). واستعمال صيغ المبالغة (خَوَّان، كَفُور) يوضح أن سبب غضب الله هو التوغل في الفساد.

*﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَانَ مُشْرِكُو أَهْلِ مَكَّةَ يُؤْذُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَزَالُونَ مَحْزُونِينَ مِنْ بَيْنِ مَضْرُوبٍ وَمَشْجُوجٍ، وَيَشْكُونَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: اصبروا فإني لم أومر بِالْقِتَالِ حَتَّى هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ أَذِنَ اللَّهُ فِيهَا بِالْقِتَالِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بالمدينة، هي أول آية نزل فيها الإذن بالقتال في الإسلام (كما قاله ابن عباس وغيره) [1].

إشراقة بلاغية: بناء الفعل لما لم يسم فاعله ﴿أُذِنَ﴾: فيه إجلال للآذن (وهو الله)، وإشارة إلى أن الإذن صدر من الجهة العلياء التي لا يُرد أمرها.

القراءة ﴿يُقَاتَلُونَ﴾ (بفتح التاء): أي أُذن للمؤمنين الذين يقع عليهم القتال والفعل من الكفار.

التعليل ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾: الباء للسببية؛ القتال في الإسلام ليس للعدوان ولا لإكراه الناس، بل لرد الظلم وإقامة العدل، وحتى الفتوحات فقد كانت لأن المشركين يتربصون بالمسلمين الدوائر، فكما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنفاذ جيش أسامة قبل موته لرد كيد الروم استمر المسلمون على ذلك حتى الدولة العثمانية.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: استَعمَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسامةَ، فقالوا فيه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد بَلَغَني أنَّكُم قُلتُم في أُسامةَ، وإنَّه أحَبُّ النَّاسِ إليَّ. [2].

وفي رواية ابن إسحاق في السيرة: فقال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء - يعنون جيش أسامة - جند المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - [3]..

1- البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص793).
2- أخرجه البخاري (4468)، ومسلم(2426)
3- انظر إسلام ويب: موسوعة السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.

ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: توكيد بالنواسخ (إنَّ، اللام)؛ لبيان أن النصر ليس بعددهم بل بقدرة الله، وأنّ تشريع القتال هو ابتلاء للمؤمنين واختبار لصدقهم.

*﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

إشراقة بلاغية: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾: الاستثناء هنا استثناء منقطع أو هو من باب "تأكيد المدح بما يشبه الذم"؛ أي: لا جرم ولا ذنب لهم إلاّ التوحيد! وهو أعلى درجات الحق.

سنة الدفع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ...﴾: قانون كوني اجتماعي (التدافع). لولا القوة التي تحمي الحق لغطس العالم في الفوضى والاستبداد.

التدرج في دور العبادة ﴿لهُدّمت صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾: الصوامع: هي معابد رهبان النصارى (الأبعد عن العمران)، والبيع: كنائس النصارى، والصلوات: كنس اليهود (أو مصلياتهم)، أما المساجد فمعروفة: دور عبادة المسلمين.

هذا التدرج التاريخي والحرية الدينية يظهر أن الجهاد في الإسلام لحماية حرية الضمير والعبادة الإنسانية من عسف الطغاة.

ولقد حفظ الإسلام للنصارى كنائسهم ولليهود صلواتهم، وأقرهم على أن يعطوا الجزية وأعلنها (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [البقرة:256]، فقبل منهم الجزية مقابل حمياتهم مع منعهم أن يقاتلوا مع المسلمين حتى يدخلوا في الإسلام.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمُعاذِ بنِ جَبَلٍ حينَ بَعَثَه إلى اليَمَنِ: إنَّكَ ستَأتي قَومًا أهلَ كِتابٍ، فإذا جِئتَهم فادعُهم إلى أن يَشهَدوا أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، فإن هُم أطاعوا لكَ بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللهَ قد فرَضَ عليهم خَمسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيلةٍ، فإن هُم أطاعوا لكَ بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللهَ قد فرَضَ عليهم صَدَقةً تُؤخَذُ مِن أغنيائِهم فتُرَدُّ على فُقَرائِهم، فإن هُم أطاعوا لكَ بذلك، فإيَّاكَ وكَرائِمَ أموالِهم، واتَّقِ دَعوةَ المَظلومِ؛ فإنَّه ليس بينَه وبينَ اللهِ حِجابٌ. [1].

وقال البيهقي فيما علقه البخاري بصيغة الجزم عن معاذ رضي الله عنه لأهل اليمن ائتوني بعرض ثياب خميص أو لبيس في الصدقة مكان الشعير والذرة

1- أخرجه البخاري (1496) واللفظ له، ومسلم(19)

أهون عليكم وخير لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حكى البيهقي أن بعضهم قال فيه: " من الجزية " بدل الصدقة. قلت: وهو موافق لقاعدة الإسلام في إقرار اليهود والنصارى على ديانتهم مع دفع الجزية إن أبوا الإسلام. والله أعلم [1].

التأكيد المطلق ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾: قسم مقدر، مع لام القسم ونون التوكيد الثقيلة؛ شرط وجزاء، نصر منهج الله يوجب نصر الله للعبد.

*﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

الأسلوب التفسيري والتربوي: (هذه الآية هي رسم لمعالم الدولة المسلمة ورجال التمكين كما يوضح سيد قطب ومحمد قطب – رحمهما الله -.

الأركان الأربعة للتمكين: إقامة الصلاة: صلة بالله وتزكية للروح، إيتاء الزكاة: تكافل اجتماعي وتوازن اقتصادي، الأمر بالمعروف: صيانة القيم الفاضلة النهي عن المنكر: كبح الفساد ومحاربة الجريمة.

ثم ختم الآية سبحانه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: تذكيراً للحكام والتمكين بأن السلطة عارية ومرد الأمور كلها إلى الله.

*﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

يرى البقاعي وابن عاشور – رحمهما الله - في هذا السياق تسلية للنبي ﷺ وتثبيت للمؤمنين بأن التكذيب سنة قديمة ومصير المكذبين محتوم.

الاستقراء التاريخي: استحضار لأقوام: (نوح، عاد، ثمود، إبراهيم، لوط، مدين، موسى).

العدول البلاغي في ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾: لم يقل "وقوم موسى" لأن بني إسرائيل لم يكذبوه كلياً، وإنما كذبه فرعون وقومه، أو تعظيماً لمقام موسى عليه السلام.

التدرج الإلهي ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾: الإملاء (الإمهال وتأخير العقوبة) ثم الأخذ الفجائي.

إشراقة بلاغية: الاستفهام الإنكاري التهويلي ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي كيف كان نكيري أي: إنكاري وتغييري لنعمتهم وعذابهم؟ استفهام يبعث الرعب في نفوس الظالمين.

1- انظر صحيح البخاري بعد حديث (1447).

وفي حذف ضمير المتكلم موافقة لفاصلة السورة، وأن الشر ليس إليه سبحانه، بل من عند أنفسهم وبسبب تكذيبهم، وفيه تعريض لمشركي قريش ومن مشى عن نهجهم.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استفتَح الصَّلاةَ كبَّر ثمَّ يقولُ : (وجَّهْتُ وجهيَ للَّذي فطَر السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا مِنَ المُشرِكينَ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي للهِ ربِّ العالَمينَ لا شريكَ له وبذلكَ أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسلِمينَ اللَّهمَّ أنتَ الملِكُ لا إلهَ إلَّا أنتَ أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ ظلَمْتُ نفسي واعترَفْتُ بذَنْبي فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ لبَّيْكَ وسعدَيْكَ والخيرُ كلُّه في يدَيْكَ والشَّرُّ ليس إليكَ أنا بكَ وإليكَ تبارَكْتَ وتعالَيْتَ أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ [1].

*﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: الصور البيانية: رسم مشهدي للدمار والخراب:

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: العروش هي السقوف، سقطت السقوف أولاً ثم سقطت الجدران فوقها، مما يدل على الشمول والدمار التام.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: مقابلة بيانية رائعة بين البئر (مصدر الحياة والماء) وقد عُطّلت، والقصر (رمز السلطة والتحصين) وقد خلا من سكانه؛ فلم يغنِ كونه مشيداً (مرتفعاً وحصيناً) عن أهله شيئاً. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل: رفيع طويل، من قولهم: شاد بناءه إذا رفعه، وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: مخصص، من الشيد وهو الخص.

*﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

إسناد العقل للقلب ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾: ثمّ أكد وبيّن في خاتمة الآية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾: المعنى: أنّ العمى الضار هو عمى القلب، فأمّا عمى البصر فليس بضار في أمر الدين [2].

"الحصر والنفي" ينفي العمى الحقيقي عن الجوارح؛ فالعمى النافع أو الضار هو عمى البصيرة لا البصر.

زيادة تأكيد ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾: تأكيد وتعيين للمكان لرفع الخيال والتركيز على العضو الحقيقي المسؤول عن الهداية والضلال.

1- صحيح ابن حبان (1773)، وأخرجه مسلم (771) بلفظ مقارب في أثناء حديث، وأبو داود (760)، والترمذي(3421) .

2- البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص794).

*﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

نزلت في النضر بن الحارث، حيث قال: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فأنجز ذلك يوم بدر، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ السِّتَّةِ الَّتِي خَلَقَ الله فيها السماوات وَالْأَرْضَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبشِروا يا معشرَ صعاليكِ المهاجرينَ بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ تدخلون الجنةَ قبلَ أغنياءِ الناسِ بنصفِ يومٍ وذلك خمسمائةُ سنةٍ» [1].

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هذه أيام الآخرة: وقوله: (مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ، وَإِنَّ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ عَذَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ أَلْفُ سَنَةٍ [2].

مقياس الزمن عند الله يختلف عن مقياس البشر. فإمهال الله للظالم قرناً أو قرنين ليس إلا لحظة في حساب القدر؛ وليس للمؤمن أن يستعجل الحسم، فقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:128].

*﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾: تأكيد واستحضار: تكرار اللفظ للتأكيد والتحذير.

الفارق الدقيق بين الآيتين: قال في الآية السابقة ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ – حيث كان التركيز على نتيجة العذاب المشهودة.

أمّا هنا فقال سبحانه: ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا... ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ – التركيز على الاستدراج (الإملاء) قبل الأخذ، لئلا يغتر الظالم بسلامته ومترفه.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ، حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. قال: ثُمَّ قَرَأَ {وكَذلك أخذُ رَبِّك إذا أخَذَ القُرى وهيَ ظالِمةٌ إنَّ أخْذَه أليمٌ شَديدٌ} [هود: 102] [3].

1- أخرجه أبو داود (3666)، وصدر الدين المناوي في شرح المناهج والمناقيح (ج4/ص394) وقال إسناده صحيح.
2- البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص795).
3- أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583) باختلاف يسير.

كما أنّ خاتمة الآية ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾: فيها إغلاق للهروب؛ فلا مفر من الله إلاّ إليه.

*﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، مقام الرسالة والمفاضلة بين الفريقين:

مهمة الرسول: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (مكلف بالبلاغ والتبيين لا بالسيطرة ولا بالإجبار).

فريق المؤمنين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لهم مغفرة﴾: جزاؤهم مغفرة للذنوب، و﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (وهو الجنة، ووصف رزقها بالـ "كريم" لأنه لا نكد فيه ولا انقطاع).

أمّا فريق المعاندين ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: مُعَاجِزِينَ: أي ظانين أنهم يعجزون الله أو يسبقونه ويغلبون أمره.

فكان الجزاء: ﴿أولئك أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ، أب: ملازمون لها لا يفارقونها، كما توحيه كلمة (أصحاب) من المصاحبة واللزوم.

*﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾

من أعظم آيات التمحيص مما يلقيه خصوم الإنبياء من الشبهات، وقد استفاض ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - في الوقوف عندها وشرحها، وتفسيرها.

معنى ﴿تَمَنَّىٰ﴾: التمني هنا يأتي بمعنى الصلوات والتلاوة والقراءة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:78]، فالأماني في سورة البقرة هي التلاوة فقط والقراءة.

وكما قال حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله يرثي عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليلة... وآخره لاقى حمام المقادر[1].

ومعنى ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: عندما يتلو الرسول القرآن والوحي، يلقي الشيطان الشبه والوساوس والأوهام في أذهان المستمعين ليصدهم عن التدبر، أو يحاول إحداث الفتنة أثناء تلاوته.

﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾: النسخ هنا بمعنى الإزالة والإبطال للباطل، والإحكام هو التثبيت والبيان.

1- هذا عجز بيت شعر شهير للصحابي حسان بن ثابت يرثي فيه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعنى "تمنى" هنا أي تلا وقرأ.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

الحكم الإلهية من هذه السنّة: فتنة وامتحان لأصحاب القلوب المريضة ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: المنافقون الذين يتشبثون بالشبهات، وقساة القلوب ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: هم الكفار والمعاندون الذين يزدادون طغياناً.

ذلك أنهم افتتنوا بما يلقيه الشيطان، ثم نسخ ورفع ما فهموا فيه باطلاً ورفع وأبطل الله الباطل، فعتوا وازدادوا عتوّاً، وظنوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول من تلقاء نفسه فيبطله. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، أي: لفي خلاف شديد.

وهذا قريب مما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:7].

أمّا أهل العلم والإيمان فقال فيهم سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ التوحيد والقرآن، وقال السدي: التصديق بنسخ الله تعالى ﴿أَنَّهُ﴾ أي: أن الذي أحكم الله من آيات القرآن هو ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: يعتقدون أنه من عند الله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي: فتسكن إليه قلوبهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: صراط قويم هو الإسلام.

وكان خاتمة الآية: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فيها البشارة الدائمة بأن الله لا يترك المؤمن في تيه الشبهات بل يهديه للحق.

*﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

فهذه الحالة النفسية للكفار: ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: في شك قلق واضطراب من القرآن لا يستقرون على حال.

غايتهم ومصيرهم: حتى تأتيهم الساعة بغتة، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم (يوم بدر أو يوم القيامة سمي "عقيماً" لأنه لا خير لهم فيه ولا ليلة بعده ولا رحمة تلد فيه).

الفصل الإلهي في القيامة: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: انقطاع الدعاوى والمُلك الظاهري الممنوح للبشر في الدنيا.

قسمة العدل: مؤمنون صالحون في جنات النعيم، وكفار مكذبون في عذاب مهين (مقابلة للاستكبار والتكذيب بالإهانة والتحقير).

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وفي هذا ما فيه من التعريض بالكافرين والمشركين، والذين سيأتي خبرهم في الآية التاتلية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ركز على الجانب والأثر النفسي للعذاب، مقابل كبرهم وعنادهم في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

التكريم المادي والروحي للمهاجرين: التسوية بين الشهيد والميت الذي عودي في سبيل الله: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ – البلاغة تكمن في أن الإخلاص في الهجرة هو الأهم؛ سواء قضى العبد بسيف أو على فراشه، فالمصير واحد.

*﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: رزق لا مقطوع ولا ممنوع (الجنة)، التذييل بـ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: توكيد بالضمير واللام وإظهار الاسم الجليل لقطع الطمع فيما عند المخلوقين.

*﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: إرضاء تام للنفوس بعد التعب والهجرة والغربة.

قال القرطبي – رحمه الله-: وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه؛ فنزلت هذه الآية مسوية بينهم، وأن الله يرزق جميعهم رزقا حسنا.

وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل. وقد قال بعض أهل العلم: إن المقتول في سبيل الله والميت في سبيل الله شهيد؛ ولكن للمقتول مزية ما أصابه في ذات الله.

وقال بعضهم: هما سواء، واحتج بالآية، وبقوله تعالىَ: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾، وبحديث أم حرام؛ فإنها صرعت عن دابتها فماتت ولم تقتل فقال لها النبي -صلى الله عليه وسلم- أنت من الأولين، وبقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث عبد الله بن عتيك: من خرج من بيته مهاجرا في سبيل الله فخر عن دابته فمات، أو لدغته حية فمات، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، ومن مات قعصا فقد استوجب المآب .

وذكر ابن المبارك، عن فضالة بن عبيد في حديث ذكر فيه رجلين أحدهما أصيب في غزاة بمنجنيق فمات، والآخر مات هناك؛ فجلس فضالة عند الميت، فقيل له: تركت الشهيد ولم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت؛ ثم تلا قوله تعالى والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا الآية كلها. وقال سليمان بن عامر:

كان فضالة برودس أميرا على الأرباع فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والآخر متوفى؛ فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته؛ فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ، اقرءوا قوله تعالى :والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا. كذا ذكره الثعلبي في تفسيره، وهو معنى ما ذكره ابن المبارك.

واحتج من قال: إن للمقتول زيادة فضل بما ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل: أي الجهاد أفضل؟ قال: من أهريق دمه وعقر جواده. وإذا كان من أهريق دمه وعقر جواده أفضل الشهداء علم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول. قرأ ابن عامر، وأهل الشام (قتلوا) بالتشديد على التكثير. الباقون بالتخفيف. ليدخلنهم مدخلا يرضونه أي الجنان. قراءة أهل المدينة (مدخلا) بفتح الميم؛ أي دخولا. وضمها الباقون، وقد مضى في (سبحان). وإن الله لعليم حليم قال ابن عباس: عليم بنياتهم ، حليم عن عقابهم [1].

*﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ...﴾، فقه العدل والنصر الإلهي:

*﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾: تشريع القصاص والعدل دون اعتداء أو تجاوز، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾: ضمان إلهي قاطع بالنصر لمن انتصر لنفسه بالعدل ثم عاود العدو البغي عليه.

ثم جاء التذييل بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾: فيها إشارة لطيفة إلى حث المؤمنين على العفو، وأن الله مع قدرته على الانتقام يحب العفو والمغفرة.

*﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

الربط الكوني والبرهان الوجودي:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: من يقدر على إدخال ظلمات الليل في ضياء النهار وتدوير الفلك، هو وحده القادر على تقليب الدول ونصر المستضعفين وتحويل الذل إلى عز.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾: هذه هي القمة والمحور الأساسي لكل ما سبق من آيات؛ فالظلم والباطل والكفر إلى زوال مهما عتوا، لأن الله هو الذات الثابتة والوجود الحق، وكل ما عداه باطل وفانٍ.

1- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (ص12/ج88-89).

التذييل بـ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: العلي في ذاته وصفاته فوق كل جبار، الكبير الذي يصغر أمام عظمته كل طاغية ومستكبر.

*(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (66) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (67) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(72) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ(78))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس الختامي لسورة الحج (الآيات، هي مقطع ذو جوّ يتراوح بين الاستدلال الكوني التوحيدي، ومواجهة الشبهات والجدال، وإقامة الحجة البالغة، وختام التكليف التعبدي والأمة الوسط.

*﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

السياق والتناسب: جاءت بعد الحديث عن نصر الله وتدبيره، لتلفت النظر إلى تدبيره الدقيق في إحياء الأرض بعد موتها، وهو دليل كوني على إحياء النفوس والنصر والبعث.

إشراقة بلاغية: الاستفهام: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام تقريري يُفيد الرؤية القلبية والواعية.

الانتقال الزمني: عبر بـ ﴿أَنزَلَ﴾ (ماضٍ) ثم عطف بـ {فَتُصْبِحُ} (مضارع)؛ لإفادة تجدد الخضرة واستمرارها فور نزول الغيث، وهو تصوير بلاغي دقيل لمسارة الأرض بالاستجابة.

البيان: عبر باسم الفاعل ﴿مُخْضَرَّةً﴾ للتأكيد على الثبوت والتحول التام في الصفة.

ثم جاء الختام بالأسماء الحسنى: ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ "لطيف" بإنزال الماء واستخراج النبات بدقة ودون ضجيج، "خبير" بمواقع القطر وحاجة الأرض.

*﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ السياق والأسلوب: الانتقال من الإحياء المباشر إلى الملكية المطلقة للكون.

إشراقة نحوية بلاغية: تقديم الخبر {لَّهُ} يُفيد القصر والحصر (له وحده لا لغيره).

التوكيد في الجملة الاسمية بـ {وَإِنَّ}، ولام التوكيد {لَهُوَ}، وضَمير الفصل {هُوَ}، للرد على كل من يُشرك أو يستغني عن الله.

لطيفة تفسيرية: تجمع الآية بين الغنى الذاتي المطلق {الْغَنِيُّ} والاستحقاق الذاتي للحمد {الْحَمِيدُ}؛ فهو غني لا يحتاج لعباده، ومحمود على كل نعمائه وسننه.

*﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

السياق والأسلوب: عرض نعم التسخير وحفظ الكون لبيان رحمة الله ورأفته بالناس عموماً سبحانه، وهو من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:6].

تبين سعة مغفرة الله سبحانه وتعالى فإنه ذو عفو وصفح وستر على عباده، يغفر لمن تاب ويحلم على من عصاه رغم كثرة ذنوبهم في الليل والنهار.

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: يا عبادي إنّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُهُ بينَكم محرَّمًا فلا تَظالموا يا عبادي إنَّكم تخطئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعًا ولا أبالي فاستغفروني أغفرْ لَكم يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديتُهُ فاستَهدوني أَهدِكم يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمتُهُ فاستطعموني أطعِمْكم يا عبادي إنَّكم لن تبلُغوا ضرّي فتضرُّوني ولن تبلغوا نفعي فتنفَعوني يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منْكم ما زادَ ذلِكَ في مُلْكي شيئًا يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكُم ما نقصَ ذلِكَ من مُلْكي شيئًا يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ

منهم مسألَتَهُ ما نقصَ ذلِكَ في مُلكي شيئًا إلَّا كما يَنقصُ البحرُ إن يُغمَسْ فيهِ المِخيَطُ غمسةً واحدَةً يا عبادي إنَّما هيَ أعمالُكم أُحصيها لَكم ثمَّ أوفِّيكم إيَّاها فمن وجدَ خيرًا فليحمدِ اللَّهَ ومن وجدَ غيرَ ذلِكَ فلا يلومنَّ إلَّا نفسَهُ [1].

إشراقة بلاغية نحوية: {سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ}: تقديم "لكم" للتكريم والتبيين.

{أَن تَقَعَ}: مفعول لأجله (أي: كراهة أن تقع، أو حذر أن تقع).

الفلك تسير {بِأَمْرِهِ}، والسماء تُمسك {بِإِذْنِهِ}؛ لإثبات أن الأسباب الطبيعية معطلة لولا القيومية الإلهية.

لمحة نفسية سياقية: أشار ابن عاشور وسيد قطب – رحمهما الله - أنّ الشديد في حفظ كفة الكون المرفوعة فوق رؤوس الناس هو ذاته الرؤوف الرحيم بضعفهم.

*﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ السياق والتناسب: الانتقال من مشهد تسخير العالم الخارجي إلى المشهد الإنساني الذاتي (دورة الحياة والموت).

إشراقة أسلوب وبلاغية: العطف بـ {ثُمَّ} للتراخي والترتيب الإلهي لمراحل الوجود (الإيجاد -> الموت -> البعث).

المقابلة التباينية: بين سابغ النعم الإلهية المذكورة سابقاً وبين رد فعل الجنس البشري {إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ} (صيغة مبالغة على وزن فَعُول)؛ جحودٌ يتناقض مع البديهة.

*﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾،

السياق: تتنزل الآية لتثبيت النبي ﷺ في وجه جدال المشتركين في شرائع الدين والذبائح والعبادات.

إشراقة نحوية وبلاغية: {مَنسَكًا}: اسم زمان/مكان أو مصدر ميمي يُعبر عن طريقة التعبد والذبيحة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: شريعة هم عاملون بها، وروي عنه أنه قال: عيداً.

{فَلَا يُنَازِعُنَّكَ في الأمر}: نهي للنبي ﷺ والمراد منه نهي الكفار عن المنازعة (نهيٌ على طريق الكناية والتثبيت). يعني أمر الذبائح، نزلت في بديل بن ورقاء، وبشر بن سفيان، ويزيد بن خنيس، قالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم، ولا تأكلون مما قتله الله.

1- انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج8/ص81)، وأخرجه مسلم (2577) باختلاف يسير.

قال الزجاج: (فَلَا يُنَازِعُنَّكَ) أي: لا تنازعهم أنت، (وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ) إلى الإيمان بربك والتوحيد، (إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ، وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

هنا ما يسميه البلاغيون الاستعارة: {إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ} استعارة تمثيلية؛ حيث أنّ الهدى طريق وثيق متمكن هو عليه النبي صلى عليه وسلم ومن تبعه.

*﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

الأدب الجدالي والتسلية: إرشاد قرآني لقطع الجدال العقيم، الأسلوب: تفويض الأمر لله {اللَّهُ أَعْلَمُ} واستحضار اليوم الآخر {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} كمنهج في حسم اللجاجة والجهل.

وهذا فيه شيء من الإعراض عن جدالهم، وكما قيل: لو كل كلب عوى ألجمته حجراً لأصبح الصخر مثقالاً بميزان.

*﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. السياق: توكيد القضاء والقدر والعلم الشامل كأرضية لحكم الله يوم القيامة.

إشراقة بلاغية: تكرار اسم الإشارة البعيد {ذَٰلِكَ} لإعظام شأن العلم الإلهي والكتاب (اللوح المحفوظ)، وختم بـ {إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} لرد أي استبعاد في العقول القاصرة.

*﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

نفي المبرر النظري والمنطقي للشرك: لا يوجد لديهم برهان نقلي ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ولا برهان عقلي/علمي ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾.

ثم خُتمت الآية بحكم نافذ {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} نفيٌ لجميع جنس الناصرين بتنكير كلمة "نصير" ودخول "من" الاستغراقية.

*﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

التصوير الفني والأسلوب: رسم المشهد النفسي والحركي للكفار: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ} (انقباض الوجوه والعبوس).

{يَكَادُونَ يَسْطُونَ}: حركة الهجوم والمواطأة بالبطش شديدة الشغَب، والمماحكة

ثم المقابلة والسخرية التهكمية: {قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ}؛ يتضايقون من سماع الآيات، فالأشر والأنكى ينتظرهم وهي {النَّارُ}.

*﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، *﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}

المثل المعجز (ذروة البيان القرآني): الافتتاح: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} النداء لكل البشرية، وكلمة {ضُرِبَ} بصيغة المبني لما لم يسمّ فاعله، لإفادة تحققه وشهرته.

التعجيز والتسفيه: جعل الآلهة المزعومة عاجزة عن خلق أحقر المخلوقات {ذُبَابًا}، بل وأعجز من أن تستنقذ ما يسلبه الذباب منها.

إشراقة بلاغية: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ إيجاز بديع يختصر كل فلسفات الشرك والتعلق بغير الله.

التشخيص النفسي: *﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ أصل كل شرك وضلال هو الجهل بعظمة الله وقدرته، وخُتمت بالاسمين {لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} تناسباً مع ضعف الأنداد.

عن جابر بن عبد الله رضي الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما في السَّماواتِ السَّبع موضِعُ قدمٍ، ولا شبرٌ، ولا كفٌّ إلَّا وفيهِ ملَكٌ قائمٌ، أوَ ملَكٌ ساجدٌ، أو ملَكٌ راكعٌ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ، قالوا جميعًا: ما عبَدناكَ حقَّ عبادتِكَ إلَّا أنَّا لم نُشرِكْ بِكَ شيئًا. **[1]**

*﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، السياق: بعد هدم الشرك وأصنامه، تُقرر الآية مبدأ الاصطفاء الإلهي للرسالة؛ فالرسالة ليست بالاقتراح أو التحكم البشري، بل باختيار الله العليم المحيط بالماضي والمستقبل، الذي *﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

(عْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) قال ابن عباس: ما قدموا، (وما خلفهم) ما خلفوا، وقال الحسن: (ما بين أيديهم) ما عملوا، (وما خلفهم) ما هم به عاملون من بعد[2].

يروي عن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: بينما أنا أصَلِّي سَمِعتُ متكَلِّمًا يقولُ: اللَّهُمَّ لك الحَمدُ كُلُّه، ولك المُلْكُ كُلُّه، وبيَدِك الخَيرُ كُلُّه، وإليك يُرجَعُ الأمرُ كُلُّه؛ علانيتُه وسِرُّه، أهلٌ أن تُحمَدَ أبدًا، إنَّك على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي جميعَ ما مضى مِن ذُنوبي، واعصِمْني فيما بَقِيَ من عُمُرِي، وارزُقْني عَمَلًا زاكِيًا ترضى به عنِّي، قال:

1- أخرجه الطبراني (184/2) (1751)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة))(1403) وقال ابن حجر العسقلاني في تحفة النبلاء: لا بأس برجاله.

2- انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص798-799).

فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرْتُ ذلك له، فقال: ذاك مَلَكٌ أتاك يُعَلِّمُك كيف تحمَدُ رَبَّك[1].

حتى يأتي ختام السورة (التكليف الجامع والأمة الوسط): *﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ... ﴾

التدرج في الخطاب والتكليف: العبادة الخاصة: *﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ (الصلاة والتذلل لله).

النفع المتعدي: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ (عموم أعمال البر)، البذل والتضحية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (نصرة الحق ومجاهدة النفس والأعداء).

معالم التيسير والتشريف (نظرة الفكر والإسناد): ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾: تشريف بالانتساب والتكليف.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: قاعدة الشريعة الكبرى (رفع الحرج والتيسير).

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾: ربط الأمة بامتدادها التاريخي التوحيدي الأصيل.

الغاية والشهادة: ﴿يَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: وظيفة الأمة الشاهدة على العوالم.

الخاتمة والملتجأ: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

إيقاعٌ وختامٌ يتناسب مع موضوع سورة الحج؛ بدأت بالساعة وزلزلها، وانتهت بالاعتصام بالله الناصر المولى.

1- أخرجه أحمد (23355) بلفظه، ومحمد بن نصر المروزي في ((قيام الليل)) (ص: 339)، والطبراني في ((الدعاء)) (1746) كلاهما باختلاف يسير، وقال ابن حجر في الفتوحات الربانية (ج5/ص116) رجاله موثقون إلا الفدكي يعني المبهم الراوي عن حذيفة

المراجع